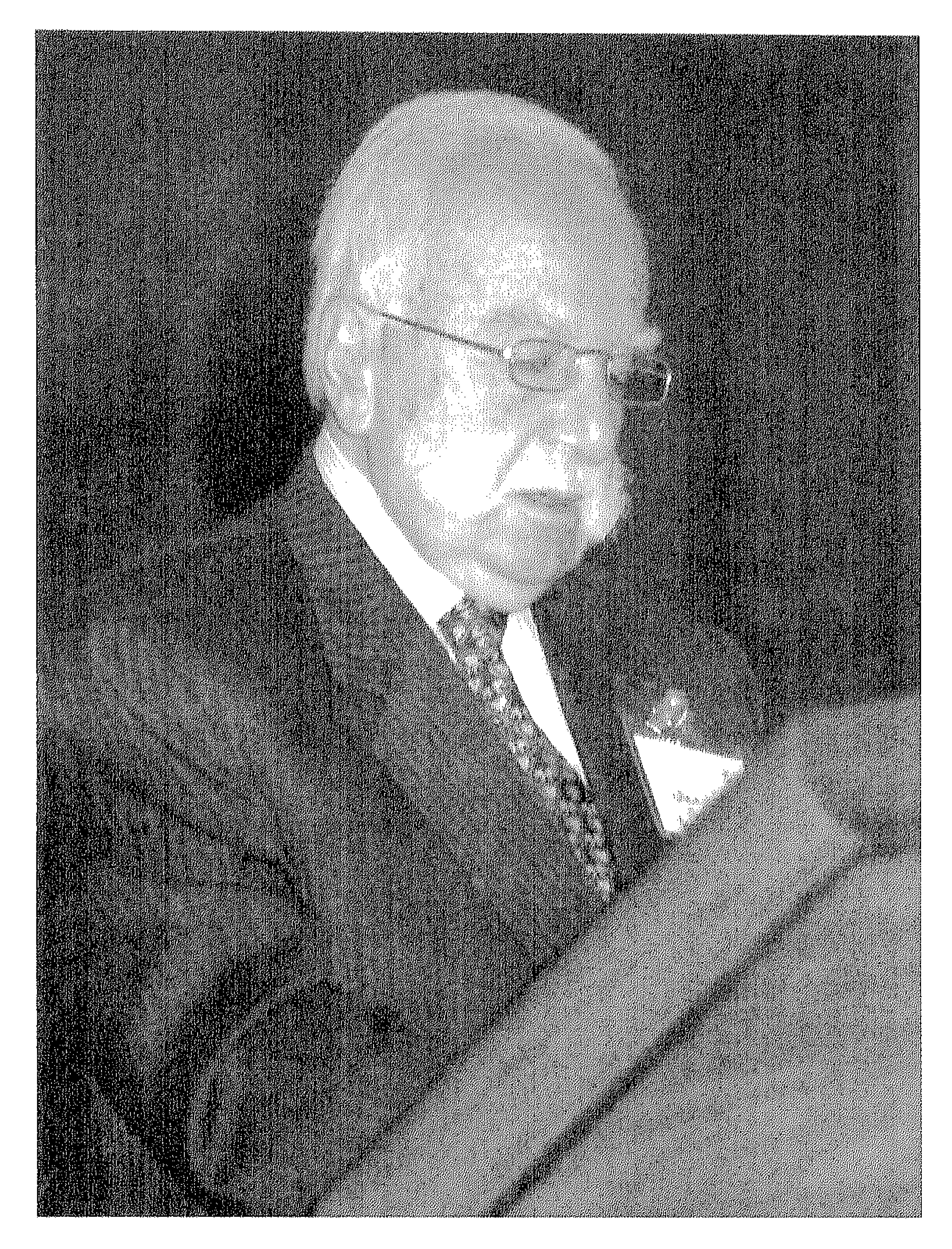
برهان الدجاني

كتابات في الأدب

تحرير

هشام نشابه



الأستاذ برهان الدّجاني

برهان الدجاني في سطور

هو الأستاذ برهان راغب سعود الدجاني من مواليد يافا في فلسطين سنة ١٩٢١، سليل عائلة مشهورة عُرفت فيها عدة شخصيات بارزة من العلماء. تخرج من الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٤٠ بدرجة بكالوريوس في الآداب فرع الاقتصاد، ثم نال شهادة الماجستير في الاقتصاد سنة ١٩٤٤ من الجامعة نفسها. وفي سنة ١٩٤٨ نال شهادة الحقوق من كلية الحقوق في القدس التابعة لحكومة الانتداب.

أصدر مجلة «الهدف» الأسبوعية في القدس في سنتي ١٩٥٠ و١٩٥١، وتولى الأمانة العامة للاتحاد العام لغرف التجارة والصناعة والزراعة للبلاد العربية منذ سنة ١٩٥١.

تولى التدريس في قسم إدارة الأعمال في الجامعة الأميركية في بيروت من سنة ١٩٥٣ حتى سنة ١٩٧٤، كما حاضر ودرّس في كثير من الجامعات في الدول العربية.

هو عضو مؤسس في مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية التي تأسست في بيروت سنة ١٩٦٣، وعضو في اللجنة الاستشارية للقضايا الاقتصادية في جامعة الدول العربية.

كلفه المجلس الاقتصادي العربي سنة ١٩٧٢ وضع دراسة عن المصالح الاقتصادية العربية في خدمة القضايا القومية، وأعد الخطة البترولية التي طبقتها الدول العربية في أثناء حرب ١٩٧٣. وفي سنة ١٩٧٧ كلفه المجلس الاقتصادي العربي الإشراف على دراسة «استراتيجية العمل الاقتصادي العربي المشترك».

كتب الكثير من الأبحاث التي تتناول مختلف جوانب الصراع العربي - الصهيوني واقتصادات العالم العربي.

ألّف في السياسة والاقتصاد، كما كتب القصة والرواية. ومن أهم كتبه «الاقتصاد العربي بين الماضي والمستقبل» (٧ أجزاء)، ومقدمات «الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية» بصفته محرر هذا الكتاب منذ سنة ١٩٦٤ حتى سنة ١٩٧٢. كما نقل إلى اللغة العربية عدداً من الكتب الإنكليزية في الاقتصاد والتراث الإسلامي.

توفي الأستاذ برهان الدجاني في بيروت بتاريخ ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٠.

INSTITUTE FOR PALESTINE STUDIES
Anis Nsouli Street, Verdun
P.O.Box: 11-7164
Postal Code: 11072230
Beirut - Lebanon
Tel. 804959. Fax: 814193
Tel. & Fax: 868387
E-mail: ipsbrt@palestine-studies.org
http://www.palestine-studies.org

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مؤسسة عربية مستقلة تأسست عام ١٩٦٣ غايتها البحث العلمي حول مختلف جوانب القضية الفلسطينية والصراع العربي ـ الصهيوني. وليس للمؤسسة أي ارتباط حكومي أو تنظيمي، وهي هيئة لا تتوخى الربح التجاري.

وتعبِّر دراسات المؤسسة عن آراء مؤلفيها، وهي لا تعكس بالضرورة رأي المؤسسة أو وجهة نظرها.

شارع أنيس النصولي ـ متفرع من شارع فردان

ص. ب: ٧١٦٤ ـ ١١

الرمز البريدي: ١١٠٧٢٢٣٠

بيروت ـ لبنان

هاتف: ٨٠٤٩٥٩. فاكس: ٨١٤١٩٣

هاتف/ فاكس: ٨٦٨٣٨٧

E-mail: ipsbrt@palestine-studies.org
http://www.palestine-studies.org

كتابات في الأدب

Kitābāt fī al-adab
Burhān al-Dajānī
Taḥrīr: Hishām Nashshābih

Writings in Literature
Burhan Dajani
Edited by: Hisham Nashabi

ISBN 9953-453-00-4

الطبعة الأولى ـ بيروت
نيسان/ أبريل ٢٠٠٤

برهان الدجاني

كتابات في الأدب

تحرير

هشام نشّابه

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

المحتويات

مقـدّمـة

أغتنم صدور هذا الكتاب الذي يتضمن إحدى أهم الكتابات الأدبية للأستاذ برهان الدجاني، رحمه الله، لأروي للقارئ قصتي مع هذا الكاتب العزيز الذي اقترن اسمه في أذهان أغلبية المقدّرين لعلمه بالاقتصاد والسياسة، وعرفته أنا ـ عن كثب ـ أديباً فذاً. والواقع أن الأستاذ برهان خصّ الاقتصاد والسياسة باهتمامه الأكبر، لكنه كان بينه وبين نفسه، وبينه وبين إخوانه المقرّبين ـ ويطيب لي ويشرفني أن أكون من هؤلاء ـ أديباً مرهف الحس، شديد الملاحظة، يحلو له أن يتوسل القصة لنقل فكرة أو التعبير عن موقف. ولعل أحسن دليل على ذلك هو قصة «الأيام والناس» التي صدرت سنة ١٩٨٨، وهي تقع في مجلد كبير لا تتسع له هذه المختارات.

والأستاذ برهان الدجاني من المعجبين بالكاتب الإيرلندي برنارد شو، الذي كان يتوسل الرواية أو المسرحية لنقل أفكاره وإعلان مواقفه. فالأستاذ برهان يحذو حذو شو كلما ألحّت عليه الأفكار الوجدانية التي لا تدخل في الفكر السياسي ولا في الفكر الاقتصادي بشكل مباشر.

فالقصة أو الرواية أو المسرحية أرحب من السياسة والاقتصاد، ولا تفرض على كاتبها تلك الموضوعية الصارمة التي لا مجال فيها لإظهار عاطفة أو للاستماع إلى صوت القلب والضمير. والأستاذ برهان على صعيد المشاعر الإنسانية رجل عاطفي، رقيق المشاعر، محب للحياة وللناس. لذلك أحسب أن القصة (أو الرواية، أو المسرحية) كانت الواحة الرحبة التي يلوذ بها كلما أرهقته قيود الدراسات العلمية الصارمة.

عرفت هذا الجانب عند أخي برهان عن كثب عندما ساقتنا ظروف العمل من أجل مؤسسة الدراسات الفلسطينية للسفر معاً إلى القاهرة، في أوائل التسعينات من القرن العشرين، لمتابعة مشاريع المؤسسة مع جامعة الدول العربية.

كان ذلك في فصل الصيف، وفي شهر رمضان المبارك. وللقاهرة في شهر رمضان رونق خاص إذ تطالعك المظاهر الرمضانية في تصرفات الناس جميعاً، حتى ليكاد المرء يشعر بأن النيل والشوارع والعمارات كلها مدركة أن عجلة الحياة في رمضان تدور بشكل مختلف؛ هدوء مرهق في النهار، وخصوصاً في الصيف، يتحول إلى حياة تضج بالحيوية في الليل.. فكيف إذا كانت الليلة التي صادفت زيارتنا للقاهرة ليلة هي «خير من ألف شهر»؟!

خرجت في تلك الليلة بعد الإفطار مع أخي برهان، رحمه الله، نسير مع سكان القاهرة على ضفاف النيل أمام الفندق. وكأنما القاهرة كلها نزلت تستمتع بالكورنيش تلك الليلة.. غير أن الازدحام لم يمنع الأخ برهان من الاسترسال في حديث مشوّق عن «سيرة الملك الظاهر بيبرس» كنموذج مميَّز للأدب الشعبي العربي. وما من شك في أنه كان درس هذه القصة دراسة معمقة؛ درس شخصياتها فرداً فرداً، وتطوُّرَ أحداثها، وترابطَ هذه الأحداث وصلتها الواهية بالوقائع التاريخية، وصلتها الوثيقة بروح التاريخ وعوامله المحركة الكامنة في ضمير الأمة. وقد خلص إلى نتيجة كان يدعو إلى إعارتها اهتماماً خاصاً، وهي أن من أروع مظاهر العبقرية عند الشعوب أدبها الشعبي. هذا الأدب الذي لا مؤلف معيّن له؛ فالمؤلف هو الشعب، أو القصّاص الذي يستوحي مشاعر الناس واهتماماتهم، فيصوغها بلغة الناس أحداثاً وعلاقات إنسانية هي خير مرآة للعصر الذي جرت فيه.

من هنا عتبنا على المؤرخين والأدباء العرب وغير العرب الذين لم يعيروا الأدب الشعبي العربي الاهتمام الذي يستحق.. اللهم إلاّ نفر قليل من الأدباء المصريين يستحق التقدير. أمّا غير العرب فلم يعرفوا من الأدب الشعبي العربي إلاّ «ألف ليلة وليلة»، وبقيت «تغريبة بني هلال»، وعنترة، والزير، وشجرة الدر، وجحا، على هامش اهتماماتهم.

لمدة ساعتين أو يزيد حدثني الأخ برهان، على ضفاف النيل، عن سيرة الظاهر بيبرس مستعرضاً أحداث القصة وشخصياتها وأبعادها التاريخية والاجتماعية. ثم قال لي قول المقرِّر الذي لا يقبل النقاش: هذه ليلة القدر، ويجب أن نذهب لمشاركة الناس في الاحتفال بهذه الليلة المباركة في باحة جامع سيدنا الحسين. وهكذا كان. وهناك بين الناس الذين افترشوا الأرض تجوّلنا، واستضافتنا عائلات طيبة متواضعة، للشاي ـ الثقيل وسكّر زيادة ـ وللحديث الرشيق المليح الذي يميز إخواننا المصريين عامة. وكم كان الأخ برهان فرحاً، مرتاحاً، وهو يبادل الناس الحديث ويمازحهم ويضحك معهم حتى ساعة متأخرة من الليل، أو لساعة متقدمة من الصباح. هكذا العالِم الجليل يعيش مع الناس الذين أحب.. إنهم أهله أبناء العروبة، فيهم تكمن حيوية الحضارة العربية وعبقريتها الأصيلة.

فإلى الأستاذ برهان الدجاني العالِم والأديب، إلى برهان الإنسان المحب يُهدى هذا المجلد تكريماً لذكراه.

شباط/ فبراير ٢٠٠٤ هشام نشابه

سيرة الملك الظاهر بيبرس
عرض ونقد أدبي*

سيرة الملك الظاهر بيبرس رواية شعبية تقع أهم حوادثها خلال الفترة التي تبدأ بتسلّم المماليك زمام السلطة في الدولة الإسلامية في مصر والشام، خلفاً للأيوبيين. وهذه الفترة من أحرج فترات التاريخ الإسلامي في القرون الوسطى؛ فالحروب الصليبية كانت بعدُ مستعرة. ولئن استطاع صلاح الدين أن يهزم الصليبيين في حطين ويدفعهم إلى الوراء ويستعيد القدس ويسترد جانباً مهماً من مدن الساحل، ولا سيما عكا وعسقلان، فإنه لم ينجح في القضاء عليهم. وجاءت الحملة الصليبية الثالثة لتسترد عكا، وتُلحق بصلاح الدين هزائم أليمة، وتعيد التهديد للقدس، وهو ما اضطره إلى دخول صلح معهم أعاد عكا إليهم، وألزمه هدم أسوار عسقلان وتركها مكشوفة أمامهم. وبذلك بقي الساحل الفلسطيني بطوله، من صيدا إلى غزة، محتلاً من قِبل الصليبيين أو مكشوفاً أمامهم، حتى تمكّن السلطان المملوكي الأشرف خليل من استعادة عكا وإجلاء الصليبيين عن آخر حصونهم في بلاد الشام. ومن الواضح أن شوكة الصليبيين كانت في هذه الفترة قد ضعفت، لكن الخطر الصليبي لم يكن قد انتهى؛ فالصليبيون كانت لهم السطوة البحرية، وكانت من خلفهم ممالك أوروبا تظاهرهم وتناصرهم، ولو بحماس فاتر خال من جذوة الاندفاع، وصدق العزيمة وقوة التصميم.

وتمثل الفترة المملوكية مرحلة كان الصليبيون فيها ـ والوافدون منهم إلى الأراضي الإسلامية بصورة خاصة ـ قد أصبحوا أكثر معرفة بالمسلمين وبدأوا يألفونهم، ويقيمون معهم كثيراً من علاقات التعايش. فالنظرة التجريدية إلى الإسلام والمسلمين تباعدت إلى حد ما. وبدأ الصليبيون يتعاملون معهم كأناس، وفق قواعد تتيح الحد الأدنى من الجو اللازم لعملية التعايش. وربما ارتفع البعض هنا وهناك لإقامة علاقات فردية أوثق. وظهرت فئات من الصليبيين الذين يعكسون هذا الجو الجديد، جنباً إلى جنب أولئك الصليبيين المندفعين بالهرج العقائدي الذي كان قد

---

* نُشرت هذه الدراسة في كتاب: هادية دجاني شكيل وبرهان الدجاني (محرران)، «الصراع الإسلامي ـ الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى» (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٤)، ص ٥٨٠ ـ ٦٦٨.

أطلق عقال الحروب الصليبية في الأصل.

وواجهت الدولة الإسلامية المشرقية في هذه الفترة زحفاً جديداً، هو الزحف المغولي الآتي من الشرق، ممعناً في القتل والدمار، وتقويض مقومات الحياة والمجتمع في البلاد الإسلامية. لكن ذروة الاندفاع المغولي تأخرت عن ذروة الاندفاع الصليبي أكثر من مئة عام، الأمر الذي أتاح لمصر وبلاد الشام فرصة الإفلات من الغزو المغولي، وردّه على أعقابه، وإلحاق الهزيمة به.

أمّا رواية «سيرة الظاهر بيبرس» ذاتها، فكانت تعبيراً أدبياً عظيماً عن جو هذه الفترة والأحداث الجسام التي وقعت فيها. وهي بالتأكيد ليست تأريخاً، لكن تاريخ الفترة هو الإطار العام الذي يبدو فيه، فيمكن اعتبارها المضمون العاطفي والفكري الذي واكب تلك الأحداث وأثر في توجيهها، وحدد قوة اندفاعها، وكوّن شخصيات أبطالها، ولوّن خيالات الناس، وهمومهم، وآمالهم، خلالها وحيالها.

ونصنف هذه الرواية في «أدب الملاحم» أو «الأدب البطولي»، فأبطالها من الشجعان الذين لا يهابون الموت، ويقاتلون من أجل النصر. ومسارحها ساحات القتال في البر والبحر، ومضمونها الأعمال التي تتطلب الشجاعة والإقدام وسرعة الحركة، وحضور البديهة، وسعة الحيلة، والثقة بالنفس، وقوة العزيمة، ونفاذ الفراسة، وحسم الأمور، وإحكام الضربة ـ وباختصار، تآلف المَلَكات الفكرية والجسدية في حركية متكاملة تتوجه كلها في أثنائها، بغير تناقض أو تلكؤ، نحو هدف واحد، لتبلغه في ضربة واحدة أو في ضربات متعاقبة. وبذلك، فإنها تمثل جزءاً من الأدب البطولي الشعبي العربي، الذي يضم سيراً أُخرى مثل سيرة سيف ابن ذي يزن، وسيرة الزير سالم، وسيرة وتغريبة بني هلال. ولعلها أعظمها جميعاً، بحكم اتساع موضوعها كصراع بين عالمين وحضارتين، هما العالم العربي وحضارته الإسلامية وعالم أوروبا وحضارته المسيحية تحت اللواء الصليبي، وبحكم اتساع مسارحها التي تشمل إلى جانب مصر والشام جميع الأراضي البيزنطية وجزر البحر الأبيض المتوسط ومياهه، وبعض البلاد الأوروبية، بل يجري جانب من حوادثها في بلاد السودان وأعالي النيل. ثم هنالك تنوع شخصياتها الإسلامية والصليبية، وحُسْن اختيارهم لتأدية المعاني التي تتوخى الرواية الإفصاح عنها.

ورواية الملك الظاهر بيبرس في الأساس ملحمة شعبية، أو هي، في مصطلح هذه الأيام، مسلسل من حلقات، ومعدّ للتلاوة على لسان «حكواتي» ولفترة تمتد بعض الوقت، ولنقل إنها فترة شهر من الزمان، باعتبار أن الموسم الأهم لتلاوتها هو شهر رمضان من كل عام، حيث يجتمع الناس بعد صلاة العشاء، ويقضون ما تبقى من الليل في التراويح والترويح، أي في العبادة والتسلية. ويتلو الحكواتي كل ليلة

حلقة من المسلسل الشعبي، ويمد الحكاية لتنتهي في آخر ليلة من ليالي رمضان. وقد يتطلب ذلك شيئاً من الإضافات والحشو. ويمكن مقابلة ذلك بمسلسلات هذه الأيام التلفازية؛ فبعض هذه المسلسلات يدور حول محور الحكاية الواحدة، وبعضها يدور حول محور البطل الواحد، أو الأبطال المتعددين، في إطار من حكايات متعددة. ويمكن وصف رواية «الملك الظاهر بيبرس» بأنها رائدة زمناً وأسلوباً، فهي تسبق روايات «المسلسل» الحديثة، وتنتهج أسلوباً يجمع بين الوحدة الكبرى للرواية وتنوع الحكايات داخل تلك الوحدة حول محاور الأبطال. كما أنها رائدة في مسايرة الاستمرارية الزمانية عبر الأيام، ولذلك، فإن مفهوم النهاية فيها يختلف عن مفهوم النهاية سواء في الأدبيات السابقة أو في الأدبيات اللاحقة لها. وبعبارة أُخرى، فإن «الرواية العربية»، كما تبدو في «الملك الظاهر بيبرس»، إمّا أنها لم تأخذ علماً بـ «الوحدات الثلاث» التي حددها الإغريق للرواية الأدبية، وهي وحدة الزمان والمكان والأشخاص، وإمّا أنها لم تلتزمها. ونُرجِّح هذا الأمر الأخير نظراً إلى أن الرواية كانت حتماً من عمل أشخاص كثيرين؛ فالبعض وضع بدايتها، والبعض الآخر مدّدها وأضاف إلى حكاياتها وإلى أشخاصها. ومع أن البداية قد طلعت، فيما نرجح، حتى قبل ظهور الظاهر بيبرس على المسرح، فلا بد من أن تكون خطوطها الكبرى قد تبلورت في زمانه، وطُورت من بعده. ولا يتوقف الراوي في مواكبة الأحداث عند انتهاء الأحداث التي تشكل موضوع الرواية، بل يضيف فصلاً يصل فيه بين تلك الأحداث وما تلاها، وصولاً إلى عصرنا، لتظل، كما قُصد لها أن تكون، مواكبة للتاريخ وتفسيراً له.

ومن الأسباب التي تدعونا إلى القول إن الرواية قد تبلورت أخيراً في زمان بيبرس ـ البطل الذي تحمل اسمه ـ هو أن فيها نفحة إعلامية. لكن شتان ما بينها وبين الإعلام الممجوج، الذي تبرز فيه «الوسائط» في أيامنا بطولات الحاكم وخوارقه. فهي ذات صدقية، بمعنى أن رواتها يقصّون أموراً ربما يعتقدون بصدقها. ومن الجائز أنها كانت تُروى مع مبالغات إعلامية في زمان بيبرس نفسه، ثم أُسقطت أحاديث التضخيم منها بعد موته، ليظهر الملك الظاهر فيها أخيراً ملكاً مسؤولاً وقائداً ورجل دولة يمارس مهمات الحكم والجهاد وهمومها، كإنسان طبيعي، لا كإنسان خارق من صنع الخيال. وأبطال الرواية كلهم مقتبسون من الواقع ـ بالنسبة إلى تكوين شخصياتهم، مع أن بعض أحداث مغامراتهم يجنح إلى الخيال. وهذا أمر طبيعي في الأدب، تقتضيه الحاجة إلى إضافة بُعد «المسرحة» إلى الحكاية، من أجل الإثارة وإبراز المعاني، أي هي نوع من الرؤية المجهرية لأجزاء معينة، يُقصَد بها تعميق الرؤية والفهم. ومن اللافت للنظر فيها التسلل «الإسماعيلي» الذكي إلى

مسرحها؛ إذ إن الكثيرين من أبطالها هم من «الفداوية» الذين يظهرون في أحرج الأوقات والمعارك ويؤدون دوراً مؤثراً. ومن الجائز اعتبار ذلك رمزاً للروح الاستشهادية لدى «الأبطال»، لكن من المؤكد أنها تحتوي إعلاماً إسماعيلياً واضحاً. وليس هذا بمستغرب أيضاً، نظراً إلى قرب عهد الرواية بالدولة الفاطمية، وإلى انتشار الفِرَق الباطنية في بلاد الشام. ومن اللافت للنظر أن الحضور الإسماعيلي الذي تتحدث عنه مصدره بلاد الشام لا مصر، وهو ما يوحي بأن الإسماعيلية الفاطمية ربما كانت قد اندثرت في مصر، لكن الباطنية ظلت متوقدة في بلاد الشام. والمهم في الأمر، أن هذا التسلل الإسماعيلي يظهر الوجود الإسماعيلي وجوداً ملتزماً الإسلام والجهاد في سبيله، بصفة عادية ولو مع شيء من التأرجح. إلاّ إن هذا الوجود ذاته كان في فترة صلاح الدين، سواء في الشام أو في مصر التي كانت لا تزال تحت حكم الخلافة الفاطمية، يمارس لعبة «بقاء» في غمرة الصراع الإسلامي ـ الصليبي، مؤثراً ألاّ يتورط في انحياز كامل مع هذا الجانب أو ذاك. وربما كان هذا التغير الذي تعكسه الرواية في الموقف الإسماعيلي ناجماً عن رؤية صحيحة للمجرى التاريخي للأحداث، الذي أخذ ينذر بوضوح بتراجع «الصليبية» والقرب من نهايتها، وربما أثّرت في تكوينه السياسات الحكيمة التي انتهجها صلاح الدين قبل نصف قرن من حوادث الرواية، بحيث فضَّل التفاهم والتصالح مع الإسماعيلية على المواجهة العنفوية الدموية معها.

وإذا استبعدنا من هذه الرواية ـ لأغراض التحليل ـ الحشو الذي تطرق إليها، نتيجة طبيعة تلاوتها الإلقائية ـ وجدنا فيها قصة متماسكة ومتكاملة وذات وحدة في التركيب، والمضمون، والهدف، والمغزى.

وهي تشبه الملاحم العظمى التي ابتدعتها الآداب العالمية في أنها تدور حول محاور واضحة من الأحداث التي ينتظم أشخاصها حولها، وتوضح من خلالها مشاهدها ووقائعها. ولها محاور ثلاثة هي: أولاً، المحور الصليبي، ومضمونه الحركي والعاطفي ـ يقابله المحور الإسلامي ومضمونه الصمودي الواثق كمحور ثان مقابل. والمحور الثالث محور إبداعي لافت للنظر، يمثل شوق التلاقي المشروع بين المحورين المحتربين، في أوضاع التأجج العدائي المحيط بكل منهما. ولكل واحد من هذه المحاور «رموز» من الأشخاص المجسدين لمضامينه ومعانيه.

إن أول هذه «الرموز» ظهوراً في الرواية، وأولاها في التحليل الأدبي، جوان، الرمز الصليبي، الذي يواكب الرواية بتعاريجها كافة، ويقف وراء أحداثها بالتدبير والتفكير والتسلل والتحريض والإيقاد والمشاركة، في حركة وتحريك دائبين، وفي انتقال من خطة إلى خطة، ومن مشروع إلى مشروع، ومن ضربة إلى ضربة، ومن

حملة إلى حملة، في عداء مستحكم، لا يهدأ ولا يرتوي.

ونلحظ في رسم صورة جوان الاهتمام الذي يبديه الذهن العربي بـ «الأنساب» وأثرها في تكوين الإنسان. ولذا، فإن حكايته تبدأ عند جده نشوان الصليبي الساكن في دير نشوان. فقد خلّف نشوان هذا ولدين «الأول يقال له كرسيمول والآخر يقال له أصقوط، فلمّا نشأوا وتعلموا خرج كرسيمول على أثر آبائه، وخرج أصقوط من أهل الشر والفساد، فأمّا كرسيمول فإنه أقام بالدير مقام أبيه وصار يُعلِّم الأولاد الإنجيل ويعلِّمهم التحريم والتحليل... وأمّا أصقوط الممقوت فإنه صار يجمع الأولاد ويُفسدهم ويعلمهم الشر والضلال..» ويأتي ملك جزر البرتغال بابنته إلى كرسيمول ـ وقد نذرها للعلم ـ فيعلمها أربعة أعوام «حتى صارت تعرف جميع العلوم.» ويأتي أخوه أصقوط يوماً لزيارته ومعه رجاله، فتعجبه البنت، وينهاه أخوه الصالح عن الاقتراب منها، لكنه عاد يوماً ومعه رجاله، فـ «رأى أخاه نائماً في مخدع فأقفل عليه، وأخذ البنت وأزال بكارتها، ثم أخذ رفقاه وسار.» (٢٧)

نلحظ في هذه البداية تفريقاً بالغ الأهمية والعمق، بين أخوين، أحدهما ينتمي إلى المسيحية بالإيمان والعلم، والثاني يمثل الشقاوة، وكلاهما من نسب واحد وأصل واحد.

ولا يجد كرسيمول بُداً من إعادة البنت، وكانت قد «حبلت وظهر عليها الحمل فوضعت غلام ذكر وهو عبرة لكل البشر، وليلة وضعه انكسف القمر، وأظلمت الدنيا ونزل المطر، وزادت الرعود، وكانت ليلة منحوسة، وقد خرج رفيع العنق كبير الرأس شنيع المنظر.» ولمّا «كبُر الولد وانتشى ومشى، طلع آفة رقطاء ومؤذي لا يُطاق، كثير النفاق.» (٢٨) فلمّا كثرت الشكوى منه أرسله جده إلى كرسيمول مع كتاب يقول له فيه «الواصل ابن أخيك وقد سميته جوان.» (٢٩) وبذا يكون جوان المولود اللاشرعي للشهوة المتجبرة الطائشة والشقاوة الجامحة، لا يكاد يُعاد إلى منبته «البرتغالي» حتى تضيق بلده ذرعاً به، وتقذفه بشقاوته، إلى «سواحل الشام».

قبل متابعة مغامرات جوان والأحداث التي يثيرها أو يواكبها، لا بد من إلقاء نظرة على الشخصية المقابلة، والتي تمثل الرمز الإسلامي، وذلك هو الملك الظاهر بيبرس الذي تحمل الرواية اسمه، وتتناول سيرته، وتدور أحداثها في عصره.

تبدأ حكاية بيبرس عندما يجد الملك الصالح ـ آخر الأيوبيين ـ أنه بحاجة إلى جلبة مماليك يُشترون من مال السلطنة لـ «يكونوا نصرة للمسلمين»، فيعهد هذه المهمة إلى علي بن الوراقة، أحد تجار الرقيق، ويطلب منه «مملوكاً خاصاً... يكون فهيم وقوي وفطين، ويحفظ القرآن، ويكون وجهه حسن.» فيذهب التاجر إلى مدينة بورصة، ويجد عند أميرها مماليك أباظية وشركسية وجرجية كلهم

مسلمون، وما منهم إلاّ ابن ملك أو بطل مشهور أو أمير «لكن هكذا حكمت التقادير.» (٣٥ ـ ٣٧) ويجد مملوكاً مريضاً اسمه محمود فيشتريه ويُطببه حتى يزول عنه المرض، وما إن يلتقي، وهو مار في دمشق ومعه هذا المملوك، دائناً له هناك، حتى يُسارع الدائن إلى رهن المملوك لقاء دينه ويأخذه إلى بيته. وصارت زوجته تستخدم هذا المملوك وتظلمه، فيهرب ويختبئ في الجبانة. وتطل عليه ليلة القدر فيدعو الله أن يجعله ملكاً على مصر والشام وسائر بلاد الإسلام ويرزقه النصر على الأعداء. ويعود إلى بيت مرتهنه وتعود زوجته إلى تعذيبه فيستغيث بأخت صاحب البيت، فتغيثه وتنقله إلى بيتها بعد أن تدفع قيمة الرهن لأخيها، وتكتب حجة شرعية متممة تمنحه فيها جميع مالها وما تملكه يداها «لأنني اتخذته ولداً لي.» (٤٢) وتعطيه اسم بيبرس؛ إذ كان لها ولد اسمه بيبرس فتوفّاه الله، فسمّته على اسم ابنها. وترمز هذه الحادثة إلى تبني الشام لبيبرس، وإغداقها عليه، ليكون عوناً لها في حربها ضد الصليبيين.

ويمر بيبرس بتجربة عجائبية، وشبه ذاتية، يحصل خلالها على «الدبوس الدمشقي»، وهو السلاح العجيب الذي يحمله في معاركه ومنازلاته، يتقي به ضربات خصم، ويقدُّ به خصماً آخر. ونجد أشباهاً لهذه التجربة في جميع الملاحم الأدبية الكبرى.

بعد ذلك تأخذ حياة بيبرس شكلاً طبيعياً لا أثر فيه لمعجزة أو عجيبة. ونجد في هذه الخلفية التكوينية لشخصيته معالم مختلفة تعكس جانباً من النظرة المجتمعية السائدة بشأن الشخصية الإسلامية. فالفعل الإنساني، وما ينجم عنه من نجاح أو فشل، يتألف من عنصرين: عنصر الكد والكدح وبذل الجهد وتحمل المشاق وإحكام الرأي والحركة ـ أي العنصر البشري الطبيعي، والثاني هو عنصر التوفيق الإلهي للإنسان، وهو أمر غيبي يختص بالإرادة الإلهية. وقد نال بيبرس حظاً كاملاً من العنصرين. ونلمس في حكاية صعوده من الرق إلى المُلْك مشهداً آخر من مشاهد الصورة العربية المجتمعية للبطل. فالإنسان قد يبدأ حياته عبداً رقيقاً مملوكاً ـ مثل عنترة بن شداد والملك الظاهر ـ أو مختلف اللون نظراً إلى ولادته لأم سوداء مثلاً، مثل أبي زيد الهلالي، لكنه من خلال بطولاته يتحرر ويرتقي أعلى درجات التميز الاجتماعي. والبطولة ذاتها تتألف من عناصر متعددة هي البطولة الجسدية والقدرة القيادية والتحلي بمكارم الأخلاق، التي تكتسب من ثم تجسيدها الإنساني في البطل المتحلي بها، فيصبح من خلال هذا الارتقاء لا مجرد «كبير القوم»، بل أيضاً رمزه عبر المجتمعات والأيام. ونجد أيضاً صورة للصراع البشري حول «الاستعباد» و«التحرير». فالصراع هنا يجري داخل العائلة (الإسلامية) الواحدة: بين عبده

الأقواسي وزوجته الظالمة من ناحية، وأُخته فاطمة من الناحية الأُخرى. إذ إن عبده وزوجته يريان في بيبرس عبداً يُسخَّر ويُستغل ويُعذب ويُهان، بينما ترى فاطمة فيه إنساناً واعداً يحق له أن يشق لنفسه طريقاً لائقاً في الحياة، وتُسخر مالها وقدراتها لتكون عوناً له على تحقيق ذاته.

وفي الحكاية العجائبية التي يحصل بيبرس من خلالها على «الدبوس الدمشقي»، إشارة رمزية إلى ما نسميه في أيامنا العامل التقاني، وهو الذي يُعطي المتفوق به قدرة فائقة على الإقدام والأحكام، تزيد في شجاعته وثقته بالنصر. وفي رواية بيبرس أحداث كثيرة مَبْنِية على مفارقات تقانية.

ومن الملاحظات المهمة التي نستشفها في رواية بيبرس مقابلة أساسية بين شخصيتي جوان (الشخصية الصليبية) وبيبرس (الشخصية الإسلامية). إذ إن جوان ـ كما تظهر خلفيته ـ إنما هو «مغتصب» للشخصية المسيحية الحقيقية التي يُجسدها ويُمثلها كرسيمول، بينما بيبرس «مُكتسب» للشخصية الإسلامية. والصراع الإسلامي ـ الصليبي لا يتخذ شكلاً مبسطاً كصراع شخصي بين بيبرس وجوان، بل إن كلاً منهما يخوض حربه ضد ما يمثله الآخر، ويبقى الصراع نفسه صراعاً بين عالمين.

ونأتي الآن إلى مضمون الرواية، الذي يتألف من مجموع الأعمال والمغامرات والمعارك التي تدور في الإطار العام للرواية، ومن الحكايات والأحداث ذات الصفة الإنسانية، والتي يعيشها كل إنسان مهما تكن أحداث الزمان، لتشكل مضمون سيرته الشخصية.

أولاً: جوان

عندما أرسل ملك البرتغال جوان إلى كرسيمول، فإنه أخذ «يعلمه الأحكام، وتصاحب مع بعض أولاد الملوك، وقرأ غوامض العلوم... وكان جوان صاحب مكر وخداع وحيل...» وصادف في تلك الفترة من عمره أن وقع في الأسر «رجل عراقي صاحب فضل وعلم يقال له الشيخ صلاح الدين وكان يقرأ علوم كثيرة ويروي الأحاديث ويفهم علم الأدب... والمنطق... والفلك والهندسة والحكمة» فأُودع السجن، ورآه جوان «فأعجبه» وقال لرفاقه إن هذا الرجل من «رهبان المسلمين، والرأي عندي أننا ننزل إليه ونُقبل يديه ونحتال عليه... ونخليه يعلمنا كلام المسلمين لنكون بجميع العلوم عارفين..» وبعد أن اكتسب جوان كل ما عند الشيخ صلاح الدين من علوم قال لصديقه «مرادي أن أقتله فقال له ولأي شيء تقتله مع أنه فعل معك كل جميل... فقال أنا الذي لا أعترف بجميل ولا بتفضيل وليس لي

عزيز... فقتله.. ثم قال إدفنه.. لئلا يعلم كرسيمول.» ولمّا استفقده كرسيمول سأل جوان ورفيقه عنه «فقالوا له هرب فقال لهم علمت بأنكم قتلتموه.. فاخرجوا عني وإن أقمتم بهذا الدير قتلتكم..» (٣٠ ـ ٣١) وهنا نلمح مرة ثانية التفريق بين المسيحية الصالحة والشقاوة الهوجاء، أي بين المسيحية والصليبية.

ويلبس جوان ملابس صلاح الدين ويتقمص شخصيته، ويتعرف على ملك الموصل ـ أيبك، وهو سائر إلى مصر مع جيش له ليدخل خدمة الملك الصالح ويتودد إليه بمهارته في الطب، ويتظاهره بالصلاح، وبتفقهه في أمور الدين.. ويصبح أيبك وزيراً في ديوان الملك الصالح... وفي هذه الأثناء يموت قاضي الديوان فيقترح أيبك تولية الشيخ صلاح الدين فيوافق الملك على ذلك ويصبح جوان قاضي القضاة في الديوان. ويتسلل بذلك إلى قلب المؤسسة الحاكمة. ومن موقعه هذا نراه يطبِّق خطة من ثلاث شعب؛ فأحكامه، بوصفه قاضياً، مبنية على ما قد يكون لها من أثر في إحداث البلبلة في صفوف المسلمين، ونصائحه للملك مبنية على خُبث النية وسوء القصد. ثم إنه ينشىء لنفسه أعواناً يتكلون عليه ويستغلهم بالتحريض الخفي على إثارة الفتن والفوضى، ثم يتقدم بالرأي «السديد» للقضاء على الفتنة، وما همّه إلاّ القضاء على القادة الأكفاء الذين يدفع بهم إلى مجابهة الفتن. وبذا يشغل الناس عن محاربة الصليبيين، ويجرهم إلى التدافع الداخلي. ويراسل أُمراء الصليبيين سراً ويدفع القوات الإسلامية إلى كمائنهم... ومن المشاهد اللطيفة دخوله على ملك جنوا بلباس قاضي المسلمين، «ولمّا أن استقر بالجلوس خلع القاضي ما عليه من الملابس فظهر من تحتها ملابس الرهبان، ودخل على ملك جنوا فلما رآه تعجب منه وقال له من أنت، قال له أنا جوان، فقال له ولأي شيء أنت عامل قاضي المسلمين، قال له لأجل مساعدة أتباعنا والقضاء على أخصامنا...» (١٢٨) ونراه في مشاهد أُخرى يجهد للقضاء على كل بادرة سلام قد تلوح بين أمير صليبي وبين المسلمين.

ولعل في هذه النبذة تعبيراً عن الحاسة الشعبية بوجود «اختراقات» صليبية للمؤسسة الحاكمة على أعلى مستويات المسؤولية.

وتتطور شخصية جوان مع الأيام، وبتأثير ما يكتنفها من سلبية الكره والمحايلة والخداع، والقتل والقتال، فنرى لديه إغراء بممارسة نزواته حتى ضد جماعته وصفِّه. فنراه مثلاً وقد قام بزيارة إلى ملك أنطاكية الفرتماكوس يحرضه فيها على الإغارة على حلب. «وأقام إلى جانبه وتأمل في رجاله فرأى فتى واقفاً بين يديه، قال جوان أظن أن هذا الفتى ابنك لأنه يشبهك تماماً، قال نعم هذا ابني كرفوس قال جوان ولماذا لا ترسله على رأس جيش ليحارب أعداءنا، فإني أراه بطلاً شجاعاً وهو

كفؤ لهذه المهمة..» ويرسل الملك الفرتماكوس كرفوس ابنه الطريّ العود على رأس قوة لمهاجمة حلب، ويتنازل مع أحد أبطال المسلمين فيخر قتيلاً. «فلما رأى جوان ذلك الحال... التفت إلى البرتقش (خادمه) وقال إرخ العنان للجواد ودعنا نسلم بأرواحنا لأن هذا الجيش لا يثبت إلاّ ساعة أمام جيش السلطان، فقال له البرتقش ما دمت تعرف ذلك فلأي شيء أمرتهم بالهجوم وتسببت لهم بالفناء، قال له تربت يداك، أما تعرف أنه صارت لي عادة وميل شديد إلى الحروب وسفك الدماء..» (١٦٤). ثم يعود إلى أنطاكية ويخبر الفرتماكوس بما حدث «فلما سمع الفرتماكوس بهذه الأخبار، وأن ولده قُتل، لطم ونتف شعره ورمى طيلسانه، وقال كل هذا منك، أنت أغريت ولدي على القتال..»

وتستمر رحلة جوان مع الحروب وسفك الدماء، فقد أصبح الآن هدفاً محدداً بالاسم، يكاتب بيبرس ملوك الصليبيين بشأنه، ويهددهم بأن «كل من اعتمد على جوان وقربه ليس له عندنا إلاّ قطع رأسه.» (٣١٨) يخاف جوان على نفسه بعد أن يلمس هذا التبدل تجاهه «وغيّر زيه ولبس ملابس المجوس وكهان عبّاد النار قاصداً بلاد العجم فقال له الكاهن ما تريد قال له أنا مظلوم واسمي جوان وقد اطّلعت على جميع الأديان، فما رأيت أحسن من عبادة النار، فهي الإله الكبير، فعلم بي النصارى فطردوني وكان مرادهم أن يسلموني للمسلمين فيقتلوني... فأسألك بحق النار والنور أن تساعدني وتقدمني للملك هلاوون..» ويسأله هلاوون عن سبب مجيئه فيقول له «وحق النار لا أتخلى عنك حتى أُمَلِّكَكَ بلاد العرب والروم» ويسأل هلاوون وزيراً له فيما يقول جوان فيجيبه «إني لا أرى سبباً لحرب ملك لم يعتد علينا. ولم يحصل لنا منه أي ضرر، فالصواب أن تطرد جواناً لأنه سبب الفتن والحروب.» ويسأل وزيراً آخر فيقول له «إقبل نصيحة جوان حتى تملك البلاد وتطيع لك العباد من عجم وعرب وروم وديلم.» (٣١٩) ويقول هلاوون لجوان «سأجمع لك جيشاً... لعلي أبلغ الأرب وأقتل ملك العرب.» ويهجم جيش التتار والمغول على حلب بتحريض من جوان. وتصف الرواية المعركة بين بيبرس من ناحية وهلاوون وجوان من ناحية أُخرى وصفاً حيّاً بجميع تفصيلاتها و«تكتيكاتها»، «وكانت وقعة عظيمة انتصر فيها المسلمون وهلك عبّاد النار والأشرار...» (٣٢٣)

ولا يبقى مع الوقت مستجيب لجوان أو متعاطف مع تحريضه. ويرسل بيبرس أحد أبطاله ـ شيحة جمال الدين ـ للتفتيش عنه فيعثر على خادمه البرتقش خارجاً من إحدى الكنائس ويقول له إن السلطان «ناقم على جوان فكم أصلى من حروب، وسبّب من فتن وأزهق من أرواح... فدلني عليه.» ولم يبق حتى للبرتقش ـ خادمه المخلص ورفيقه الأمين ـ ثقة به، أو تعاطف مع أهدافه وأساليبه فيقول لجمال الدين

«إن جواناً موجود بالكنيسة... فاتبعني لأدلَّك عليه..» ويعثر عليه جمال الدين وسط «رصد» يحرسونه، فلا يدافعون عنه، ويشترطون ألاّ يُقتل هنا بل أمام السلطان. (٣٢٧)

ونرى جوان في المشهد الأخير من حياته وقد جيء به إلى السلطان مخفوراً، ويدور بينه وبين السلطان الحوار التالي الذي يختم حياته، ويختزل الحقبة التي عاشها، والروح التي مثّلها: قال له السلطان «وقعت الآن فكيف ترى نفسك، قال أنا مرتاح وضميري مرتاح فقال له السلطان أما تعرف مصيرك والمنية تدنو منك وستنال جزاءك بما اقترفت من الجرائم وإزهاق الأرواح بسبب أعمالك الخبيثة، فقال جوان إن مصيري كمصير أي إنسان في هذه الحياة وهو الموت، فلا يهمني كيف أموت، تنوعت الأسباب والموت واحد. أمّا أعمالي، فإنْ كانت خبيثة عندكم فهي حسنة عندي، لأني قمت بما يُمليه عليّ الواجب، وقد انتقمت من أعدائي قبل أن يظفروا بي، فقال له الملك غداً آخر أيامك وسوف ترى.» وهكذا يُقتل جوان، وهو مصرٌّ على حُسن ما فعل، وغير نادم على ما أزهق من أرواح... يموت بجسده وتبقى الروح التي يمثلها حية، وخبيثة.

ثانياً: بيبرس

تتفتح مواهب بيبرس وهو مقيم في دمشق في كنف فاطمة الأقواسية ـ أمه بالتبني ـ فيخوض مغامرات تتطلب الشجاعة والفروسية. ويتجلى بهذه المغامرات اهتمامه بأمرين: الصالح العام والعدل في السلوك. تراه يتصدى للانحراف ويقاتل لإحقاق الحق، ويفعل ذلك بدافع مثالي، إذ لم يكن له بعد موقع في الدولة. فأول منازلة له مع أفراد من عرب القباتية الذين يفرضون أتاوة الغفارة على عابري الطريق ويحاولون تحصيلها منه فيرفض أن يدفعها إليهم. لكنه ينقل المسألة من المصاف الشخصي إلى المصاف العام، فيعرض عليهم بعد أن يغلبهم أن يخدموا عنده ويأخذوا ما لهم من الأموال من يده، فيقبلون. وبذلك يفرض نظاماً مكان فوضى، ويضع قاعدة وانضباطاً مكان القوة المتجبرة. ويكسب إلى جانب ذلك وفاء عرب القباتية له. ويتكرر أسلوبه هذا في ترويض الخارجين على القانون ومن ثم استمالتهم إلى صفه.

أمّا مغامرته التالية فتظهر التقدم في مجال الفروسية وتعطي في الوقت عينه صورة التعايش بين الصليبيين والمسلمين. هنالك اتفاق لتقاسم غلال صفد بين أميرها سرجويل المهري وفاطمة الأقواسية، فيعرض سرجويل أن يجري تقاسم هذا

العام على أساس أن يأخذ هو المحصول كله، ثم تأخذ فاطمة محصول العام التالي كله. فيرد بيبرس، نيابة عن فاطمة، بـ «أن هذا شيء مخادعة وتحويل، ولا بد من اقتسام الغلال وكل من له شيء يأخذه.» ويذهب إلى صفد لأخذ الحصة فيحاول كيّال الأمير أن يغشه في الكيل، فيحمل بيبرس ورجاله الغلة كلها. ويرسل سرجويل أخاه فيليب ووزيره ظنيط خلفهم في عدة من الفرسان، فيُهزمون ويُقتل فيليب وظنيط. وينفر سرجويل بكل رجاله لاحقاً بيبرس، الذي كان قد دخل الشام، ويطلبه من أميرها عيسى الناصر. ويرى الناصر أن من الأسلم له أن يُسلمه بيبرس، فيرتب حيلة توقعه في أسرهم وتخلصه منه ومن رجاله، وذلك بأن يقنعه بأن يخرج لملاقاة سرجويل، «وأنا وعساكري على إثرك، غير أني أصبر بعد خروجك حتى يصلوا إليك فأحتاط بهم... ونفنيهم عن آخرهم.» لكن عندما يخرج بيبرس يغلق الناصر أبواب دمشق خلفه، ويُهزم بيبرس ويقع أسيراً، لكن أحد الفداوية ينقذه من الأسر، فيعود إلى المعركة. ويعينه أهل البلاد والفلاحون «ويهزمون سرجويل، ويأخذ بيبرس منه الفدية ويُطلقه.» ويعود إلى دمشق فيسجنه عيسى الناصر، لكن الفداوية (الإسماعيلية) ينقذونه بناء لطلب فاطمة الأقواسية وبالنظر إلى مكانتها عندهم. ويحضر إلى دمشق نجم الدين البندقداري وزير الملك الصالح، وزوج أُخت فاطمة الأقواسية ليجمع الخراج، فيتودد بيبرس إليه ويطلب مرافقته إلى مصر فيرحب به، ويسمع بذلك عيسى الناصر نائب الشام فيقول «الحمد لله الذي رحل ولا أرانا الله وجهه.» ونلاحظ في هذه الفترة المبكرة من عمره أن «أهل البلاد والفلاحين»، أي عامة الشعب، يقفون في صفه. لقد أصبح رجل المعارضة. وينزل بمصر في بيت الوزير نجم الدين. وتنتهي بذلك مرحلة من مراحل سيرة بيبرس. (٤٦ ـ ٦٠)

وبوصول بيبرس إلى مصر، تبدأ مرحلة جديدة وشاقة من مراحل حياته؛ نجده يستعد فيها ويتدرب للتدرج نحو هدف رسمه لنفسه. ويبدأ مسيرته من موقع شعبي بسيط، وسط بسطاء الناس. «ولم يزل سائراً حتى أقبل إلى دكان وبها شاب صغير يصنع العرقسوس... وصار يأتي إليه الرفاق والإخوان وصار له جملة أصحاب من أولاد الحسينية.» (٦٥)

ومن هذا الموقع يبدأ بيبرس مواجهتين في آن معاً، إحداهما مواجهة التعسف الذي يتعرض الناس له، والظلم الذي يلقونه من السلطة، وعلى أيدي الدرك، إذ يحاول بيبرس تخليص غلام يقتاده الدرك من دون حق فيقع اشتباك يُقتل فيه مقدم الدرك وبعض رجاله. أمّا المواجهة الأُخرى فهي مواجهته الأولى مع جوان، المتخفي بزي قاضي قضاة الديوان... «فقال له الملك لأي شيء قتلت هؤلاء الدرك فقال هم تعدوا عليّ فدافعت عن نفسي، فقال قاضي الديوان ثبت عليك القتل

لإقرارك من لسانك ولا عذر لمن أقر؟!» (٦٧) ويسأل الملك العلماء الحاضرين «ماذا أنتم قائلون يا علماء الإسلام، فقالوا لقد ثبتت براءة هذا الفتى لأنه كان في موقف الدفاع عن نفسه وهؤلاء جماعة أشرار دأبهم الاعتداء على الناس وعلى أعراضهم. . .» ويلمس الملك في الناس والأشراف تأييداً لبيبرس، «حيث أنهم شهدوا لبيبرس بالصلاح والغيرة والمروءة» (٦٧) فيوليه رئاسة الدرك. وبذا يؤسس بيبرس لنفسه قاعدة شعبية، ويتولى مركزاً أمنياً حساساً، ويُقبل على مهمته هذه بمسؤولية وشجاعة وحنكة وإبداع، وذلك بأنه يحدد أهم أشقياء البلد (عثمان بن الحبلة) فيتغلب عليه، لكن بدلاً من الاقتصاص منه، يفتح له ولأتباعه باب التوبة والانضمام إليه ويقول لهم «أنا أكفيكم مؤونتكم أنتم وعيالكم، على شرط أن تتركوا التعدي على الناس والأذية وعليكم بالحق والإنصاف.» وفي الوقت نفسه أخذ بيبرس في تمضية قسم من يومه «في تعلم الطعن والنزال وأبواب الحرب.» (٧٥) ويصبح عثمان (الأسطى) من أبطال القصة، ورجل أمن محنكاً. عند هذه النقطة يدرك القاضي (جوان) خطر بيبرس، فيرتب أول محاولة لاغتياله بواسطة عميله عزقول، لكن عزقول يسقط في المحاولة.

وتتفتح موهبة أُخرى من مواهب بيبرس وهي اهتمامه بالعمارة، إذ إن الملك يأمره بعمارة حارة ودكاكين، فيُحضر المهندس الذي يشير ببناء قنطرتين «واجتهد في بناء الحارة والدكاكين حتى انتهت الحارة من البناء فأنعم على المهندسين وأرباب الصنائع، فشكروه.» (٩٢) ويأتي ببقالين وعطارين وزياتين وقهوجي وغيرهم، ويُعطي كلاً منهم «دكان وبيت يسكنه ومعاف من الأجرة ثلاث سنوات. . . وكانوا يزيدون على التسعين وفوقهم أماكن للسكن، وصارت حارة ما لها مثيل.» (٩٢) ويتآمر القاضي جوان مع شيخ العرب حرحش لحرق الحارة، فتفشل خطته ويُقبض على حرحش وجماعته. لكن الوالي يأخذ على عاتقه أمر مضايقة أهل الحارة ليغادروها فيفشل ويُقتل. ويذهب خدم الوالي إلى بيبرس قائلين «جئنا نأكل عيشنا عندك» فيسألهم إن كان لهم راتب على الوالي السابق «فقالوا ليس لنا عليه من شيء، فقال لهم ومن أين تجيبوا معيشتكم، قالوا من قطّاعي الطرق ولعّابي القمار والنشالين وبياعي الخمر وما أشبه ذلك فقال بيبرس هؤلاء الذين ذكرتموهم كيف تعرفون محلاتهم فقالوا كل حرفة لها رأس، ورأس الجميع المقدم مقلد صاحب درك البوابات بمصر.» (٩٩) ويعمل بيبرس على التعرف على «الجريمة المنظمة» ويذهب إلى مقلد، فيعرض عليه هذا أن يدخله في زمرة أتباعه، فيتظاهر بالقبول ليتعرف على هؤلاء الأتباع. . . «فإذا كنت متجولاً بالليل ووقع في يدك شخص من جماعتي أطلقه مهما كان عاملاً ومصروفك أنت وجماعتك عليّ. . . قال بيبرس رضيت بذلك

لكن أنت وجماعتك كثيرون. . . فقال مقلد أنا أُحضر الطوائف التي عندي حتى تراهم وهم يرونك.» (١٠٠) والمشهد التالي يستحق أن يُنقل بحرفيته لأنه من أروع الصفحات في وصف جانب مظلم من الحياة المجتمعية.

«ثم بعد ثلاثة أيام أقبل المقدم مقلد على بيت الأمير بيبرس فاستقبله بالترحاب والعِزّ والإكرام ثم جلس هو وإياه في المقعد الذي يُطل على الحوش. . . وإذا بخمسين امرأة لابسين حبراً وراكبات حميراً وكل واحدة منهن لها خديم ففتح لهم عثمان محلاً وأجلسهم فيه، وإذا بفرقة ثانية نحو سبعين امرأة بالأرز البيض فأدخلهم إلى مكان آخر، وبعد ذلك أقبلت طائفة فتيان وأقبلت طائفة أولاد صغار، وبعدهم طائفة رجال، وبعدهم عجائز، وبعدهم شيوخ بعمائم، حتى امتلأت أماكن البيت، فقال له بيبرس هل يوجد غيرهم، فقال مقلد أمّا الذين في مصر حضروا وأمّا الذين في دوايرها فلم يحضروا، فقال مقلد هات يا عثمان طائفة طائفة فعرض عليه النساء أرباب الحبر.

«فقال بيبرس ما هؤلاء قال هذا بقر الوحش، لهم بيوت في الحارات تطلع الواحدة منهن تحط عينها على الرجل الذي تراه مليان المال والملابس، فتسايره حتى يروح معها إلى بيتها وتسقيه الخمر حتى يغيب، فيطلع خديمها ويضع على فمه مخدة ويقعد عليه حتى تخمد أنفاسه، وبعدها يواروه بحفرة في بيتها، قال بيبرس خذهم يا عثمان واحضر غيرهم، فأحضر أرباب الملايا فقال وهؤلاء، قال مقلد هذا البقر السارح تسرح الواحدة منهن حتى يقع بها واحد منحوس يدخلها بيته، فتشرب الخمر هي وإياه وتضع مع الخمر أفيون أو ما أشبه ذلك حتى لا يعود يعي، فتأخذ كل ما قدرت عليه من البيت وتطلع وتتركه مرمياً، قال بيبرس خذهم يا عثمان وهات غيرهم، فأحضر ربات الأرز البيض فقال بيبرس وهؤلاء، فقال مقلد هذا بقر الحليب وهؤلاء يخرجون أيام الأعياد وينحشرون في ازدحام ويأخذون ما في جيوب الناس. ويمرون على التجار في صورة مشترين، البعض يُقلب والبعض يسوم حتى يجدوا فرصة ويسرقوا ما قدروا عليه، فقال بيبرس خذهم يا عثمان وهات غيرهم فأحضر الفتيان المرد. فلما رآهم بيبرس قال وهؤلاء علوق وحرامية، قال خذهم وهات غيرهم فأحضر عثمان الأولاد الصغار فقال وهؤلاء، قال مقلد أولاد كار، يعني ابن الكار يأخذ واحداً من هؤلاء الأولاد ويمشي في الطريق حتى ينظر من في جيبه صُرة فيضرب الولد كفّاً فيجري الولد ويدخل في حضن الرجل ويقول له أنا في عرضك يا عمّ، فيشفع به ويُخلصه من يد الرجل وتكون قد طارت فلوسه، قال بيبرس خذهم يا عثمان وهات غيرهم فأحضر النساء العجائز قال بيبرس ومن هؤلاء فقال هؤلاء يدخلون البيوت في صفة مشيخة وهم يسرقون مع اعتقاد النساء فيهن

أنهن من أهل الفضل والبركات. وبعدهم أحضر دقاقين العِمَلْ المزيفة ولعّابين القمار وآكلي الربا وغيرهم.

«ولـمّا عُرضت هذه الطوائف على الأمير بيبرس قال لعثمان إعرض على الجميع التوبة، فالذي يتوب لا بأس، والذي لا يتوب ضع في رجله قيد حديد. فنزل عثمان وقال يا جماعة ما قولكم في التوبة، فقالت النساء وكيف نتوب وعلى كل واحدة منا خمسة محبوب جعل للشيخ مقلد شهرية، فقال عثمان هذا مرفوع عنكم ولا أحد يطالبكم بشيء أبداً. فتابت النساء وكذلك الرجال تابوا، فأمر الأمير بيبرس أن كل امرأة تختار لها زوجاً من الحاضرين وأعطى لكل رجل وامرأة ماية محبوب، وقال لهم أتركوا الفساد وعليكم بالتقوى، وإذا خالف أحد منكم لقي الجزاء الصارم. أمّا عثمان فأوقد النار وكواهم على يدهم الشمال وقال لهم هذه علامة التوبة، وكل من وقع بعد ذلك في معصية ما جزاؤه إلاّ الموت. وانصرفوا جميعاً. أمّا الأولاد الصغار فكساهم وأدخلهم المدرسة.» ونلاحظ هنا اهتمامه الإصلاحي إلى حدّ إدخال الأولاد الجانحين إلى المدارس.

كل هذا يجري والمقدم مقلد ينظر ويرى، فالتفت إلى الأمير بيبرس وقال له: «أنت توّبت كل هؤلاء الناس فمن أين تأخذ مصاريفك أنت ورجالك، قال الأمير بيبرس يا شيخ كم عمرك قال مقلد عمري ثمانون سنة، قال بيبرس أما عبدت ربك بهذا الزمن، قال ما دخلت جامعاً قط ولي ستون سنة أقطع الطريق وأخون الرفيق ولا أعرف عهوداً ولا مواثيق، وكل الطوائف تحت يدي وكل وال يوافقني، وما عصى أمري غيرك، قال له بيبرس يجب عليك أنت الآخر أن تتوب وترجع عن هذه العيوب وتطيع علاّم الغيوب، قال مقلد وهل تظن أني كمثل هؤلاء الناس، أنت قليل عقل وخفيف رأس، أنا عندي خدام مثلك كثير لم يخطروا لي على بال، ولكن ما بقى لك عندي بعد هذا إلاّ قتلك، وجرد سيفه وضرب الأمير بيبرس فاتقى الضربة بالدبوس فانكسر السيف، فعند ذلك قام الأمير وضرب مقلد بالدبوس على صدره أرماه وكتّفه عثمان وكتّف غلامه، وقال يا شيبة الخزي والعار ثمانين سنة تعيش في هذا الضلال ولا تتوب، فقال بيبرس خذهم يا عثمان احبسهم وتولى تعذيبهم. وفي الليلة الثانية أراد بيبرس أن يركب ويدور في البلد، قال له عثمان لا تركب حتى تهدأ الحال وترى. وبعد ثلاث ليال قدم له عثمان الجواد وأوقد المشاعل فقال بيبرس هذا لا يُظهر الغريم وإنما يا عثمان إعمل لنا نوراً يخفى ويظهر. وسار عثمان ورجاله في ركاب الأمير بيبرس إلى درب الجميز وإذ بأربعة لصوص سارقين من أحد البيوت أشياء ومنتظرين حتى يمر الوالي بمشاعله فما شعروا إلاّ الوالي وعثمان قبضوا عليهم، وبعد ذلك شعلت المشاعل.

«فقال الأمير بيبرس من أنتم قالوا نحن جماعة مقلد وقال إكشف يا عثمان على العلامة فكشف عثمان وإذ بالكي على أيديهم، فقال لهم بيبرس لو كنتم من غير علامة عفوت عنكم لأنكم ما سمعتم بالشروط، أمّا أنتم عالمين بالشروط فما لكم عذر بعد التوبة. وأمر برمي رقابهم فرموا رقابهم.... ورجع بيبرس إلى منزله وهذا ما جرى. وأمّا أهل البلد أصبحوا فوجدوا القتلى في الشوارع من اللصوص وقطاع الطرق، ففرحت الخلق بهذا الحال. وقد رأى الوزير أيبك القتلى في طريقه إلى باب الخلق وفي الرميلة فسأل من قتلهم، فقالوا له الوالي بيبرس لأنهم لصوص فسار إلى باب القلعة، وإذ رآه القاضي يرتعد فقال ما الخبر قال إن بيبرس ملأ الأرض بالقتلى لأنهم لصوص، فقال إذا كان الأمر كذلك نحن نشتكي إلى السلطان ثم إنهم ساروا طالبين الديوان... فلمّا سمع الملك ذلك قال يا قاضي إن بيبرس ما افترى على الناس بل إنه قتل بحق والحق معه في ذلك، قال القاضي يا مولانا ذلك الفضل من الله. ثم نزل كل من كان في الديوان إلى حال سبيله ونزل أيبك والقاضي فالتفت أيبك إلى القاضي وقال كل ما تدبر ملعوب على بيبرس يفشل وينفذ منه ويعلو منصبه، فقال القاضي يا معز أيبك سوف ترى مني مكيدة عظيمة لهذا الولد بيبرس أصبر عليّ وشوف. وتوجه كل واحد إلى بيته...» (١٠٠ ـ ١٠٤)

لكن الرواية تنتقل بسرعة، وبمنتهى العمق وخفة الدم، لتعرض مشهداً آخر مقابلاً لهذا المشهد، لإعطاء صورة متوازنة عن عامة الناس وعلاقتهم بالمسؤولين. عُرضت لبيبرس قضية أمنية في بنها، «فالتفت بيبرس إلى عثمان، وقال له سر معي... إلى أن وصلوا إلى بنها العسل، فقال الأمير لعثمان، أُريد منك أن تأخذ هدية من السكر إلى الوزير شاهين، فقام عثمان وملأ زورقاً من السكر وسار إلى أن وصل إلى بولاق، فقال عثمان للريس دير بالك على السكر، وذهب وأتى بجمال وحمير وشيالين، وقال شيلوا هذا السكر، على كل دابة شيء منه، وذهب وأتى بجماعة زمارين وعازفين وطبالين وناس يصفقون ويغنون، وساروا على تلك الحال إلى بيت الوزير شاهين... فتعجب الوزير... وقال ما الخبر فقالوا إن الأسطى عثمان أقبل من عند الأمير بيبرس بهدية وهي سكر من بنها... وظن أنه سكر كثير، فقال للخدم، إخلوا الحواصل، فقال له الوكيل، يا وزير الزمان إعلم أن الرجال المقبلين ألف رجل ومعهم عثمان وصحبتهم مئة جمل وحمار وكل واحد محمل رأس واحد من السكر، فضحك الوزير، وقال هذا شغل عثمان... (ثم) قال مقبول يا عثمان فقال (عثمان) عليك أُجرة الجمال والشيالين ألف قرش، فقال الوزير يا عثمان إن الهدية لا تساوي نصف الأُجرة فدعهم يأخذوا السكر أُجرتهم، فقال عثمان حرام عليك تظلم الناس وتأكل أُجرتهم.. ثم إن الوزير أعطاهم مثل ما أراد عثمان

وانصرفوا وهم يدعون له ويثنون عليه... ثم إن عثمان وصل، فقال الأمير (بيبرس) وصلت الهدية قال نعم، فقال جزاك الله كل خير يا عثمان، ولكن هل أعطاك الوزير كتاب، قال نعم ثم ناوله الكتاب، فقرأه خطاباً من الوزير شاهين... وبعد فقد وصلت إلينا الهدية المرسلة من عندكم بالتمام ودفعنا أجرة الجمال والشيالة ألف قرش... وقد أحضر لنا الهدية على ماية جمل وحمار وطبالين وزمارين... فلمّا فرغ الأمير من قراءة الكتاب رفع رأسه إلى عثمان وقال له... وما منعك أن تجعلهم على أربعة أو خمسة جمال، الجمل بقرشين والشيال بقرش، قال عثمان هذا لا يصح أبداً، ربنا جعل ناس ترزق من ناس والكون هكذا، وحتى الوزير يبقى دائماً في باله الهدية...» (٧٧ ـ ٧٨)

صورة شعبية ممتعة، ودرس بليغ يعطيه الأسطى عثمان للوزير «وحتى الوزير يبقى دائماً في باله الهدية»، وللأمير «ربنا جعل ناس ترزق من ناس، والكون هكذا.» درس بالغ الجدية في تفاوت المداخيل ومعالجة البطالة، والدورة الاقتصادية، وإعادة توزيع الدخل بين الناس، يقدمه عثمان بالدعابة إلى أصحاب الشأن في البلاد، وكأنما يقول لهم إن هذه الأمور لا يمكن فصلها عن أمن البلاد واستقرارها، وإن الأمن والعدالة لا يتحققان فقط بمكافحة الجريمة.

ومن هذا المشهد، والمشهد السابق له في استعراض «جماعة» المقلد من العاملين في مجال «الجريمة»، نلمس عبقرية عثمان كمخرج استعراضي ومعرفته بما للمشاهد من دور وأثر في الحياة.

ويثير «القاضي» (جوان) فتنة بواسطة أحد عملائه «لتشتكي الناس للملك فنشير عليه أن يبعث بيبرس إلى المنطقة ليمنع التعدي فحالاً اقتلوه هو ورجاله، ومن بعدها اقترح على السلطان لأجل إخماد الفتنة أن تكون أنت حاكم هذه الناحية...» (١٠٥) لكن بيبرس ينجح في إخماد الفتنة والقضاء على مدبريها.

بهذا المزيج من الحنكة والحزم والشجاعة والحركة وحسن التوقيت، يؤسس بيبرس مكانته مسؤولاً يقف إلى جانب الشعب ويعمل للقضاء على فساد السلطة وفاسديها، ولإشاعة الأمن والعدالة بين الناس.

ويغدو بيبرس رجل الملمات، فيعينه الملك الصالح «نائب القدس» بعد أن اضطرب الأمن فيها نتيجة خطة وضعها جوان، بإرسال أشقياء «إلى بيت المقدس يقتلوا ويسرقوا.» ومن طرائف الرواية أن بيبرس يقع في أسر هؤلاء الأشقياء، ويكادون يقتلونه «وإذا بفارس قاصد إليهم... إلى أن قتل منهم سبعة وهرب أربعة في الفلاة... وخلص الأمير بيبرس من القيود وقال إشهد لي بها يا بيبرس فقال له الأمير بيبرس ما اسمك قال ضائع الاسم وغاب في البر.»

ينتهي هذا «الفصل» من المباراة بين بيبرس وجوان بـ «المكيدة العظيمة» التي أعدَّها جوان، ولا تلبث أن تتكشف عنه تداعيات مهمة. فبينما يقوم بيبرس بواجبه بإعادة الأمن في الإسكندرية عقب حوادث إجرامية مفتعلة يثيرها جوان، ومعاونون له متسللون، وعملاء محليون، ينصب جوان كميناً له ويقبض عليه، و«يبنّجه» ويضعه في صندوق كبير ويرسله مع صناديق أُخرى أودع فيها المسروقات التي جمعها رجاله إلى سفينة راسية في الميناء قائلاً لأصحابه إنه سيكون بزي القاضي ويجلس على الصندوق الكبير «وأنتم بزي التجار، فإذا رآني أمير البحر لم يتعرض لي بشيء.» (١٣٦) ولمّا نجحت العملية «أقلعوا وساروا في البحر إلى جنوا، أمّا جوان فإنه اختفى هو وغلامه وما عاد بان..». ويفتش عثمان، رفيق بيبرس، عنه، ويكتشف قصة الصناديق والصندوق الكبير ويدرك أن «فيه 'سيدي بيبرس' وأن جوان هو القاضي المزيف» ويقول للملك «كم مرة حذرتكم منه.» وإذ يعلم الملك بأن السفينة التي أقلعت بالصناديق سائرة إلى جنوا يكتب إلى ملكها طالباً إعادة بيبرس إليه، وعندما يتلقى ملك جنوا نصيحة جوان بقتل بيبرس، يجيب أحد الوزراء «أنا أنصحك أن لا تستعجل بقتله.. أنا خايف على تجارنا وأموالهم لأن مراكبنا دائماً ذاهبة إلى الإسكندرية... وثانياً لأي شيء تقتله هل قتل لك ولداً أو أخذ لك أموالاً... فيجيب الملك بأن هذا رأي جوان فيقول الوزير... إن جوان يقتله ويذهب إلى حال سبيله ونحن نقع بالمصيبة والضرر....» (١٣٨) وعندما يصله كتاب ملك مصر يأمر بإخراج بيبرس ويعتذر له، ويعيد إليه أموال الناس المسروقة من الإسكندرية ويعوضه عمّا أصابه من أذى.

وإن المجابهة التي يديرها جوان ضد بيبرس في هذا الفصل هي مواجهة خفية. فجوان يخطط لكل ما يفعل، من موقع إسلامي رفيع، توصل إليه من خلال اختراق للصف الإسلامي نجح في تحقيقه بتقمصه الشخصية الإسلامية. وسلاحه في هذه المجابهة هو التخريب الداخلي، وزرع الفوضى والاضطراب، وترويج الجريمة، لخلق جو من عدم الاستقرار، وهوة بين الحكام وعامة الناس. وهو يدرك أن محاولات بيبرس لإعادة النظام وفرض العدالة والقانون والقضاء على الجريمة وترويض المجرمين، تؤدي إلى خلق مجتمع قوي قادر على مجابهة الصليبيين، ولذلك نراه يستهدف القضاء عليه، بزجه في معارك صعبة يتأمل بأن تكون أية واحدة منها كافية للقضاء عليه. وبيبرس، من جانبه، يخوض في هذه المعارك من دون أن يدرك أن جوان هو الذي يحركها، بل يرى نفسه قائماً بمهمة ذات طبيعتين: أمنية واجتماعية. وعندما يتكشف نجاحه في هذه المهمة ويصبح شخصية بارزة تقترب من المراكز العليا في السلطة، يدرك جوان أن الفرص التي أراد أن تكون سبباً في هلاك

بيبرس، جاءت بعكس ما يرجوه منها وهيأت له سُبل الصعود، فيقرر إحداث تغيير جذري في أسلوبه، والانتقال من المجابهة في الخفية إلى المجابهة في العلن، ومن المجابهة على الجبهة الداخلية الإسلامية، إلى المجابهة الخارجية. وينزل بنفسه إلى المنازلة مستغلاً، آخر مرة، جهْل بيبرس حقيقة المعركة، فيكمن له، ويأسره، ويخطفه وينقله إلى جنوا كي يسجل نصراً معنوياً مزدوجاً، من خلال نجاح عمليته ضد بيبرس، ومن ثم من خلال القضاء عليه. غير أنه هنا يكشف من غير قصد وهناً في المعسكر الصليبي، عندما تجد جنوا أن مصالحها التجارية مع مصر تحتل الأفضلية الأولى في سياساتها، وأنها بالتالي لا تستطيع مسايرة جوان إلى أبعد من نقطة محددة.

وتتبدى المعركة الآن في شكلها الجديد؛ إذ ينجح جوان في تحريض ملك فرنسا لويس السابع (التاسع في الواقع التاريخي) على القيام بحملة صليبية ضد مصر. ويكتب نائب دمياط إلى الملك توران شاه الذي خلف أباه الملك الصالح قائلاً «وإذ أظلم الجو وبان لنا عن عسكر جرار مُقبل من ناحية البحر... وإذا أحد ملوك الإفرنج خرج من البحر ومعه جوان.» (١٤٢) ويسأل الملك مستشاريه عمّا يفعل فيشيرون عليه بأن يرسل الجيوش ويعلن الجهاد «فقال من يكون قائد الجيش، قال له الوزير إبعث الآن الأمير بيبرس بالجيش وبعده تخرج أنت... ثم إن الملك ألبس بيبرس قائداً للجيش...» (١٤٢) وإذاً، أصبح بيبرس الآن، وبعد تجربته الطويلة ونجاحه المرموق، رجل المهمات... ويتوجه بيبرس إلى المنصورة لملاقاة القوة الصليبية المتقدمة بينما يتأهب الملك لملاقاة القوة المحاصرة دمياط. وينتصر بيبرس على لويس السابع في المنصورة ويأسره ويتوجه إلى دمياط لينضم إلى القوة المقاتلة فيها بقيادة الملك. وتحدث في أثناء المعركة حادثة تنير جانباً آخر من شخصية بيبرس؛ إذ «طلع الملك المعظم إلى المنظرة وجعل يتفرج على الحرب، فجاء على باله أن يتناول كأساً من الخمر فقال لخادمه إسقني فتقدم إليه يناوله الكأس، فسطع الكأس ولمع في الشمس فلمحه الأمير بيبرس فأتى إليه وسيفه مشهور وهو يقول ما هذا يا أمير المؤمنين لا تشرب المنكر... فقال معاذ الله يا بيبرس أن أشرب، وأراد أن يرد الكأس إلى خادمه فسقط من المنظرة إلى الأرض على أم رأسه ومات بالحال، فحملوه إلى الصيوان، وعاد الأمير إلى المعمعة... إلى أن ولى النهار وهرب جوان وغلامه البرتقش ولم يبق من جيوشهم أحد. أمّا الأمير بيبرس فقد اتهمه أعداؤه بقتل الملك توران شاه فقال الوزير شاهين هاتوا بيّنة عليه بذلك، قالوا نحن كنا مشغولين بالقتال ما رأيناه، ولكن هكذا سمعنا، فقال الوزير هاتوا خدام الملك فشهدوا أنه وقع قضاء وقدراً ومات وما أحد رماه فبرّأوا

الأمير بيبرس من قتله.» (١٤٣) ولا يخفى ما في هذا السرد المختصر من براعة في بث إبهام وغموض حول موت الملك توران شاه، أكان اغتيالاً من قبل بيبرس الذي «أتى إليه وسيفه مشهور» أم قضاء وقدراً. ويخرج بيبرس من هذا الاتهام بريئاً؛ إذ من ذا الذي يستطيع أن يشهد ضده بعد أن وصل إلى ما وصل. ثم إن الملك كان في وضع شبهة. فلقد أوشك أن يرتكب معصية، لكنه ارتدع عنها. فالرمز الإسلامي لا يجوز أن يكون في وضع معصية في أثناء معركة حاسمة، لكن ثمة حاجة إلى تغطية بيبرس بزرع شبهة حول سيرة الملك.

ويتزوج أيبك ـ أحد المماليك ـ شجرة الدُرّ، زوجة الملك الصالح، ويشتركان في الحكم. وتغتال شجرة الدُرّ زوجها، وتسقط من أعلى السراي (أو تُقذف مثلاً؟) فتموت. ويولى المُلك ابن لتوران اسمه علاء الدين وعمره سبعة أعوام. وتَرِدُ إلى مصر أخبار هجوم «جيوش عُبّاد النار من تتر ومغول»... «وقد وصل الأعداء إلى غزة فبعثوا وفداً مؤلفاً من أربعين رجلاً ومعهم كتاب إلى والي مصر بالتسليم وإلاّ يقتلوا ويسلبوا ويخرجوا إلى ما هنالك من تهديد ووعيد... فاجتمعت الوفود من جميع البلاد... والعلماء وشيوخ الإسلام بالأزهر وغيره والوزراء وأمراء المماليك، فقال المهاجرون من البلاد المحتلة ليس لهذا العدو ذمام ولا عهد ولا ميثاق فإنهم يقتلون من يحاربهم ومن يستسلم إليهم على السواء، وقد ارتكبوا من المحرمات ما لا يخطر على بال، فقال لهم أمير من أمراء المماليك يقال له قطز إن هذا الأمر له ثلاثة أوجه: الوجه الأول، أن نترك لهم مصر ونرحل عنها وهذا لن يكون. والثاني، أن نستسلم لهم يفعلوا بنا ما يشاؤون من قتل وسبي وما أشبه ذلك وهذا مستحيل، فلن نستسلم إليهم بدون حرب ولا قتال. والثالث، هو الذي نقدر أن نقرّه وهو القتال بهمة عالية ونية صادقة.» (١٤٩ ـ ١٥٠)

ولمّا طلب من قطز أن يتولى قيادة الجيش «أبى أن يكون قائداً إلاّ بشرط فقالوا ما هو، قال لهم أن أكون السلطان المنفذ لما يلزم دون أن يكون عليّ آمر.» (١٥٠) وتوافق الوفود على شرطه ويلتقي بالتتر والمغول في عين جالوت... «أمّا السلطان قطز فإنه نظم خطة حربية ومكيدة للعدو ليقضي عليه. فكان سهل بيسان مرج ابن عامر ينفذ عليه ثلاثة وديان من جهة جيش الإسلام وهي وادي اللجون، ووادي بركين، ووادي جنين فعبأ هذه الوديان بالجيوش وبرز إلى السهل بالفرسان، وصدم العدو مدة ساعتين من الزمن، وأمر الجيش أن يولي من وجه العدو ويوهمه بالانكسار. وكان مع الأعداء سلاح ليس له وجود في جيش مصر وهو السهام الثقيلة، وهي مركزة على دولابين ويجرها جوادان... وقد قُتل بهذه السهام فرسان كثير. فعندما ولت فرسان المسلمين وأوهمت العدو بالانهزام، فتبعهم

العدو وطمع بالانتصار، ففاجأتهم جيوش المسلمين وخرجت من الوديان ففصلت جيش الأعداء إلى قسمين واحتاطوا بالأعداء... فأفشلت مقاومة العدو... وفروا من المعركة... وصاروا يتفقدون المجاريح ويسعفونهم ويدفنون القتلى... فتفقدوا السلطان فوجدوه مقتولاً بسهم من السهام فتأسفوا عليه وواروه التراب واستلم قيادة الجيوش الأمير بيبرس..» (١٥١ ـ ١٥٢) وللتاريخ رواية مختلفة عن مقتل السلطان قطز، بطل عين جالوت، سنتناولها في موضع لاحق.

وتحرك بيبرس بسرعة لتثبيت أقدامه. وصار يرتب نواب البلاد ويوصيهم بالعدل والإنصاف، ووضع مراصد خارج المدن لمراقبة الأعداء.. وأوصى النواب بإصلاح أسوار المدن... ورتب البريد.. وأوصى النواب بالسهر على الأمن وملاحقة اللصوص وقطّاع الطرق... ووضع في كل بلد قسماً من جيشه لمساعدة النواب وقفل راجعاً إلى مصر... (١٥٢)

وجمع الوزير شاهين أرباب الدولة وسألهم عمن «نجعله سلطاناً»، فصار كل إنسان يبدي رأيه في هذا الشأن إلى أن بت رأي الجميع على تنصيب بيبرس سلطاناً فحالاً بايعوه بالمُلك وحلف يمين الشرعية... (١٥٣)

ويتحقق بذلك حلم بيبرس في أن يصبح ملك مصر والشام، «وصارت تتوافد الأهالي للتهنئة بالجلوس على كرسي السلطنة، ففرحت الناس، وصارت المهرجانات في الشوارع، ثم ضُربت العِمْلة باسمه وخُطب له على المنابر... ثم إن الملك نظّم الرُتب كما يريد وجعل يولي على كل جماعة أقدرهم... ثم إن الملك بعث مكاتبات إلى مقدمي الحصون والقلاع... فأمر عليهم أميراً يقال له شيحة ويكنى بجمال الدين... وقال لهم هذا أمير عليكم إلى أن يظهر ويرجع سلطانكم المقدم معروف بن جمر، فقالوا بالإجماع سمعاً وطاعة... فبينما الملك يُرتب الرجال وإذا بعثمان بن الحبلة داخل إلى الديوان وهو يقول، أنت لبّست كل الناس الرُتب ولا تسأل عن أخيك عثمان، فقال له الملك أهلاً وسهلاً بالأسطى عثمان، ما تكرم جعلتك أمير...» (١٥٣) «ثم أقبل الملك إلى التخت وجلس، وإذ داخل من باب الديوان فداوي طويل القامة، عريض الكتفين... فتبسم الملك وقال، من هذا فقالوا، هذا المقدم إبراهيم بن حسن الحوراني، قال له الملك أُطلب ما تريد... قال أريد أن أكون مرافقك الأول، قال أنت رفيقي، وأتني بمرافق ثان...» (١٥٤) فيأتيه بابن خالته سعد، فأنعم عليهما الملك وأعطى كل واحد طبراً من السلاح فوقف واحد إلى اليمين وواحد إلى الشمال.

هذه الأسماء التي تتوارد كلها لحظة تولي بيبرس المُلْك ـ الوزير شاهين، وشيحة جمال الدين، ومعروف بن جمر، وعثمان بن الحبلة، وإبراهيم بن حسن

الحوراني وسعد ابن خالته، هي أسماء الأشخاص الذين يشكلون محوراً آخر من محاور القصة، ويملأونها بمغامراتهم وبطولاتهم وأعمالهم. ولا بد من إضافة اسم آخر إليهم، وإن اختلف في شخصيته عنهم، وذلك هو أمير البحار قائد الأسطول أبو علي البطرلي. أمّا عثمان بن الحبلة فلا نكاد نسمع به أو نرى له دوراً بعد اليوم بينما يصعد نجم شيحة جمال الدين مضيئاً على الرواية كلها بعبقريته وشجاعته. وإضافة إلى هؤلاء لا بد من ذكر البطل المحارب أيدمر البهلوان.

ويتوجه بيبرس على الفور إلى منازلة الصليبيين، فيهاجم فرنجيل أمير العريش الذي يقطع طريق القوافل المسافرة بين مصر والشام بمشورة من جوان، ويدخل القلعة بحيلة يدبرها شيحة جمال الدين الذي يسبقه إليها متنكراً بزي جوان، فيجمع حراس أحد الأبواب بحجة أنه يريد أن يبخرهم ويضع البنج في المبخرة، وإذ يقعون مبنّجين يفتح الباب ويُعطي الإشارة إلى جيش السلطان بالدخول. ثم ينتقل الهجوم إلى عسقلان فيقول جوان لملكها حين اشتداد المعركة «الرأي عندي أن ترسل إلى ملك يافا (ديافيل) تستنجد به»، فيرسل هذا الأخير جيشاً من خمسة آلاف لنجدة عسقلان، إلاّ إن الجيش يقع في كمين «فكانت وقعة عظيمة قُتل فيها القائد كفرياط ومن معه عن آخرهم، وأخذوا ملابسهم فلبسوها وخيولهم فركبوها... فلما رآهم عسكر عسقلان فتحوا لهم الأبواب ظنوهم نجدة من عند ملك يافا...» (١٥٧) وقد تم ذلك بفضل المعلومات التي حصل عليها شيحة المتنكر بزي خادم، والخطة التي اقترحها لإيقاع جيش ملك يافا في الكمين، «فإذا فرغوا من قتل هؤلاء يأخذون ألبستهم ويحملون راياتهم ويأتون من ناحية يافا قاصدين عسقلان...» (١٥٧) ويفر جوان.. ويتنكر شيحة ثالث مرة ليدخل يافا، فتعرفه امرأة صليبية لأنه قتل والدها، لكنها بدلاً من أن تسلمه تطلب إليه أن يتزوجها فيقول لها «خذي هذا العقد فهو يساوي ألف دينار، فهو مقدم صداقك، وقال لها غداً أكتبُ كِتابك.» (١٥٨) ويفلح شيحة في قتل السجّان خريستوفان والتنكر بزيه، ومن ثم إنقاذ فارس إسماعيلي يُدعى فخر الدين، كان قد التحق بالجيش ليطالب السلطان بأن يعينه أميراً للقلاع والحصون بدله هو (شيحة جمال الدين)، فيقرر الملك اختباره بإرساله إلى يافا ليقبض «على أعدائنا الملوك وجوان» لكنهم هُم الذين يقبضون عليه ويودعونه السجن. ويتعاون معه شيحة بعد أن يفك إسار المسجونين ويزودهم بالسلاح على أسر الملوك وجوان. ويُرسل شيحة الإشارة لمهاجمة المدينة، فيتم فتحها... «وأخذ شيحة زوجته، وأخذوا من البلد ما كان من الأموال وأسروا الرجال، وأمر الملك بهدم المدينة ثم جلس في صيوانه، وتقدم إليه فخر الدين وسلمه الثلاثة ملوك وجوان والبرتقش، وأمر الملك بضرب رقابهم فمنعه شيحة من ذلك، وقال يا أمير

المؤمنين، إبقهم وكل شيء له أوان. . . ثم أمر بمد جوان وضربوه علقة، وقال هاتوا البرتقش فضربوه علقة، ثم إن الملك أخذ عليهم العهود والمواثق وأطلق سراحهم. .» (١٦٢) ومن خلال هذه المعارك يتكشف لنا جانب من شخصية جمال الدين، كرجل مخابرات عظيم الشجاعة، وواسع الحيلة، يجيد التنكر والوصول إلى المواقع الحساسة التي تتيح له فرص التنصت والاستكشاف.

والبطل الثاني الذي يلمع نجمه هو إبراهيم بن حسن الحوراني، فلقد رأينا الملك الظاهر يعينه حارسه الأول ومرافقه. ويحمل إبراهيم أيضاً رسائل الملك ويأتيه بأجوبتها، ويقوم بسفارات يكلفه الملك بها ويرافقه دوماً ابن أخته الشجاع والمطواع سعد. وتبين لنا الأحداث التالية، التي يلعب إبراهيم دوراً مهمّاً فيها، شخصية هذا المقاتل الشجاع.

يبعث باش قران، ملك رومة المدائن، بوفد إلى الملك الظاهر ومعه رسالة يُعْلمه فيها بـ «أنه قد حضرت نساء الملوك المأسورين عندكم (ملوك العريش وعسقلان ويافا)، وقالوا لي المرجو يا ملك أن تتوسط لنا. . . وكتبت إليكم راجياً أن تطلقهم، ولكم على كل واحد خزنة مال مني وخزنة مال للذين يوصلونهم إلى عندي.» (١٧٩) ويستجيب الملك بيبرس بالقبول، فينهض إبراهيم، قائلاً «يا أمير المؤمنين أرجو أن ترسلني مع الوزراء إلى رومة المدائن وأكون حامل كتابك.» فيلبي الملك طلبه ويرسل مع الوفد المرافق للملوك الثلاثة وجوان وغلامه البرتقش هدايا إلى ملك رومة المدائن. ويحمل إبراهيم رسالة الملك التي تُعْلم باش قران بأن «هؤلاء الملوك الذين شوهوا سمعتهم لأنهم كانوا يفعلون فعل اللصوص وقُطّاع الطرق الأشرار. . كما وقع بأيدينا جوان وغلامه مرات عديدة ونحن نعفو عنه، فيعود ويحرض الملوك بالركوب علينا، وكأن دأبه الأذية والعدوان، وقتل الإنسان بدون حق. .» (١٨١) ويبلغ باش قران الملوك وجوان وخادمه أنه فداهم «لترجعوا إلى بلادكم ولكن على شرط أن لا تأتوا بأعمال شائنة، ودعوا القوافل تسافر بينكم وبين جواركم يشترون منكم بضاعتكم وتشترون بضاعتهم، فهو أحسن وأنفع من قطع الطرق والخراب.» (١٨١) ثم يقول لجوان والبرتقش «إذا عدتما إلى هذه الأعمال الشائنة فلن أعفو عنكما، والآن اذهبا واستقيما في معبد أو دير.» (١٨٢)

ويكتشف إبراهيم أن لدى ملك رومة المدائن أسرى من المسلمين يُسخرون في الأعمال الشاقة، فيذهب إلى الملك ويقول له «أنتم تهتمون بأسراكم وتزعجون العباد من أجلهم وعندكم الألوف من رجالنا أسارى بالذل والهوان ولم تذكروهم لا بشفة ولا بلسان. . إننا لن نخرج من رومة المدائن وبها أسير إلاّ ويعود معي حالاً، فقال له الملك أبشر يا مقدم إبراهيم. . . وحالاً أمر بجمع الأسارى من كل

مكان..» (١٨٣) ويطلب إبراهيم أن يعود بالأسرى عن طريق البر «لأن البحر صعب الركوب في الشتاء دائماً هائج ومتلاطم بالأمواج..» ويسير بهم وعددهم ستة آلاف بعد أن زودهم الملك بأربعة آلاف حصان وبغل ومؤن وما يلزم... لكن جوان «مشى قدامهم مسافة نهار وصار كلما وصل إلى ملك من الملوك يطلب منه الاعتداء على إبراهيم وجماعته الأسرى..» (١٨٤) ويستجيب له أخيراً ملك مدينة الانجبار.. وتدور معركة طاحنة وغير متكافئة، وعندما يرى إبراهيم تكاثر الأعداء يقول لسعد، «إذهب إلى الأوطان وقُل لمليكنا الظاهر أن يأتي بالجيوش ويأخذ لنا بالثأر، فقال له سعد أنا إنْ وصلت إلى السلطان يقتلني لفراري من المعركة والميدان، فقال له إبراهيم لا تفكر بهذه الأفكار فما أنت إلاّ بطل شجاع.. فأنا مرادي أن تخبر السلطان ورجال الأوطان... لأجل ما ينمحي أثرنا وما أحد يعرف ما جرى لنا... فرد سعد وصاح برفيع صوته وقال أبشروا يا أهل الانجبار بالخراب والدمار وإني ذاهب لآتي لكم بالبلاء الأعظم..» (١٨٥) ويستشهد في المعركة جميع الأسرى ويسقط إبراهيم إلى الأرض، ويقع أيدمر - رئيس الوفد - وهو بين الموت والحياة - ويحضر شيحة في اللحظة المناسبة ليخبئ إبراهيم ويفتش عن أيدمر.

ويعود وزير ملك الانجبار إلى داره «وهو فرحان بهذا الانتصار، فاستقبلته امرأته وكانت ذات عقل وتدبير... قالت له لأي شيء أنت مسرور وفرحان، قال لها أما سمعت بهذا الانتصار الذي انتصرناه، قالت وأي انتصار ولأي شيء ما تسمي هذا الانتصار دماراً وخراباً... ولماذا قتلتم الأسرى وهم عزّل من السلاح... وأنا أقول إن هذا الملك لا يستحق أن يكون بواب خان، فياوِلكم من هذه الأفعال.» (١٨٦) ويفتش الوزير بعد هذا الكلام في محل المعركة فيجد أيدمر وهو لا يعي على شيء وتعتني به زوجته حتى يصحو.. ويجرد الظاهر حملة، ويقاتل ملك الانجبار في معركة ضارية يُهزم فيها هذا الأخير ويُقتل. وينضم شيحة إلى الجيش ويشير على الملك الظاهر بأن «نهاجمهم قبل أن يطلع الصباح وأن الأسوار ما عليها أحد، فيقبل الملك النصيحة ويقتحم المدينة... ثم إن الملك أراد إخراج الرعايا من المدينة لأجل خرابها على الإطلاق فقال له شيحة الأصوب أيها السلطان أن تتركها عامرة، وتفرض عليها المال في كل عام وتصير من رعاياك، فقال له الملك أنا حالف إني أخربها على هذا العدوان، قال له تخرب قسم ضئيل لأجل اليمين وكفاهم ما نالهم من العذاب. والذين قاموا بهذا العدوان لاقوا جزاءهم، وليس على الرعية حق، والمسؤولية تقع على رأس الراعي، فوافق الملك على ذلك، وقال من نضعه مكان الملك ويكون عاقلاً ويليق بهذا المقام، فقال شيحة أنا أدبر الأمر. ثم إن جمال الدين جمع أعيان البلد وقال انتخبوا رجلاً يكون حاكم البلد فأنتم أخبر ببعضكم،

فانتخبوا أحدهم، فقدمه جمال الدين إلى السلطان، وقال هذا الشخص قد أرادوه حاكماً عليهم بأمرك يا ملك الزمان. فأملى عليه الملك الشروط وأنه يقدم في كل سنة المال إلى السلطان، وأن يحسن الإدارة، ويحكم بين الناس بالعدل والإنصاف، وقال له إذا جاءني شكوى عليك بظلم أو عدوان صلبتك على باب البلد وأشهد عليه وزراءه وأعيان البلد في هذا الشأن.» (١٩١)

نلمح في صورة زوجة الوزير ومضات إنسانية تعلو العداء الصليبي، وتتسابق مع الروح الصليبية التي يمثلها جوان. لكن التعصب والحقد والتطرف، كل ذلك ما زال له الغلبة.

إن الأسلوب الذي تتبعه الرواية في الانتقال من فصل إلى فصل، أو بالأحرى من معركة أو حملة إلى أُخرى، هو قدوم نجاب برسالة من نائب إحدى المقاطعات إلى الملك بيبرس ينبئه فيها إمّا بوصول وفد صليبي للقيام بسفارة ما، وإمّا بحدوث غارة أو غزوة أو اعتداء على الأراضي أو القوافل أو المسافرين، فيتخذ الملك الإجراء اللازم بعد مشاورة وزرائه ومقربيه، وتبدأ بذلك عملية جديدة تواكب الرواية وأحداثها ومشاهدها.

ونلاحظ أيضاً أن الرواية تقدم ـ من خلال الفصول ـ بطلاً في إثر بطل من «أشخاصها». فقد شهدنا مثلاً تركيزاً مطولاً على شيحة جمال الدين من خلال حملة بيبرس على مدن الساحل الفلسطيني. ثم تقدم الرواية، البطل الثاني، إبراهيم بن حسن الحوراني، وتُفرد له دوراً في السفارة إلى باش قران ملك رومة المدائن، وفي المعركة مع ملك مدينة الانجبار، وتعيد إلى المشهد شيحة جمال الدين في آخر الفصل ليقوم بدور في إنقاذ إبراهيم. ثم تتطور الرواية لتجمع أبطالها في مغامرات مشتركة، وفي مجموعات متنوعة.

أمّا الآن فقد حان الوقت لإدخال أبو علي البطرلي، أمير البحار. فالصليبيون لم يكونوا يقطعون الطرق البرية وحدها، بل الطرق البحرية أيضاً. والحرب كانت تجري على البر وفي البحار.

«فبينما كان الملك جالساً في الديوان إذ بنجاب مقبل وهو يقول، سبحان هادي الطير، قال الملك وراحم الشيب وساتر العيب، من أين وإلى أين، قال النجاب من حلب... ومدّ يده وأعطاه الكتاب ففضّه وقرأ فيه خطاباً من نائب أمير المؤمنين بحلب، إلى مولانا خادم الحرمين نصره الله..» (١٩٢) ويروي الكتاب حكاية سفينة للتجار أسرها الصليبيون واقتادوها إلى ميناء اللاذقية... «فكتب السلطان كتاباً إلى أمير البحار أبو علي البطرلي بالإسكندرية أن يَحضر بالحال... ثم إن الملك أمر الحاجب أن يخبر جمال الدين شيحة بالحضور... ثم إن السلطان

قال لأمير البحار. . . ما هو رأيك، قال يا أمير المؤمنين لقد جاءني شكاوى بهذا الشأن وكنت أُرسل المراكب تجوب البحر والسواحل. . . وإذ اتضح لي أن هذه الأفعال من ملك اللاذقية، فالواجب علينا أن نغزو مدينة اللاذقية ونفتحها. . فإذا أمرني مولانا السلطان جمعت مراكبي وعساكري وهاجمتها من البحر، ويحاصرها جيش من البر. . . فقال شيحة جمال الدين إذا أمرني صاحب الدولة. . . أحاصرها من البر ونفتح البلد ولا نكلف مولانا السلطان بالمشقة. . . ثم إن جمال الدين قال لأبي علي البطرلي، أنا أبعث إليك خبراً بالهجوم على اللاذقية ويكون هجومنا في آن واحد من البر والبحر. . .» (١٩٣) وفي آن واحد وصلت جيوش جمال الدين ومراكب أبو علي البطرلي، «ثم إنهم هجموا على المدينة من البر والبحر معاً، فرمى القبطان أبو علي بمدافعه الأبراج. . . وخرجت رجاله المغاربة الأشاوس من المراكب، وأبو علي قدامهم. . .» (١٩٤) وهجم جمال الدين بقواته من البر «واعتلوا فوق الأبراج. . . وفتحوا أبواب البلد، ودخلت الخيل. . أمّا أبو علي فملك باب البحر ودخل البلد، فما دار الحرب إلاّ ساعات حتى ملكوا اللاذقية. أمّا ملكها عندما رأى ذلك ولّى هارباً وإلى النجاة طالباً. .» (١٩٤)

ونلحظ من هذا أنه ربما كان في الأصل وصفاً لمعركة برية وبحرية حدثت في وقت لاحق، وربما كان ميدانها غرب البحر الأبيض المتوسط. فالمدافع لم تكن بعد قد استُعملت في زمان أبو علي البطرلي. كما أن تغير لقبه من «أمير البحار»، وهو اللقب العربي، إلى «القبطان» يدل على انقضاء فترة زمانية والانتقال إلى فترة متأخرة. لكن الرواية كما ذكرنا في البداية ليست تأريخاً، بل سيرة أبطال. وأبو علي البطرلي بطل بحري، وقلما وصف التاريخ العربي لنا معالم شخصية بطل بحري. . . ويكتب السلطان بتعيين أبو علي البطرلي نائباً للسلطان في اللاذقية «وله أمر مكرم ودستور معظم أن يتصرف بأموال المكوس على البضائع حسب القوانين المرعية الإجراء، وأن يبني المراكب، ويأتي برجال بحرية ويخدمهم، وأن اللاذقية هي محطة مراكبه وإنشائها، وقاعدة له ولرجاله شرف فتحها، وعليه أن يجتهد في تحصينها وتنظيم مراكب الدولة فيها، ويوصي التجار أن يكون سير مراكبهم إليها، ويُحسن معاملته معهم من أي جنس كانوا، وأُوصيه بالعدل والإحسان ومراعاة رجاله وتدريبهم، ويُكثر من إنشاء السفن، ويؤمِّنْ طرق البحار، ويحافظ على مراكب التجار وأموالهم، ويضرب بسيفه رقاب القرصان واللصوص، والسلام على سيد ولد عدنان.» (١٩٥) ويأتي بعد ذلك فصل عن حملة برمائية يقودها أبو علي البطرلي ضد جنوا، لأعمال تخريبية وقعت في الإسكندرية بواسطة المتسللين والعملاء بتحريض من ملك جنوا. وهذه الحملة ضد جنوا عبارة عن عملية خاطفة تبدأ عند

بزوغ الفجر، «فلمّا أمسى المساء أمر أمير البحار بالخروج من المدينة من بعد ما أوسقوا المراكب وحمّلوها من الأرزاق والأموال، ثم أمر بالركوب بالسفن وأخذوا معهم الأسارى (المحررين من سجون جنوا).» (٢٠١) وعاد أبو علي البطرلي إلى الإسكندرية «ومعه الذين كانوا أُسروا في بلاد الإفرنج... فاستقبله الملك... ثم سأله عن غزوته فبدأ أبو علي يسرد له كيف أنه أخذ الأعداء على حين غرة، وأنه ما نقص من رجاله ولا واحد، لأن الأعداء عندما بوغتوا في الصباح ذلوا واستسلموا..» (٢٠٢)

أبو علي البطرلي قائد بحري ممتاز، عليه سمات القائد المحترف كلها. يحسن التوقيت والمباغتة، ويجيد العمليات البحرية والبرمائية والمساندة للهجوم البري، ويفتخر بحرصه على أرواح بحارته «ما نقص من رجالي ولا واحد.»

لقد حقق بيبرس الآن ما تمناه من مُلك وأُبهة وعظمة وسلطة ومجد، ومن جهاد لنصرة الإسلام ضد الغزاة الخارجيين، ولترسيخ دعائم الدولة الإسلامية، ليسود فيها الأمان والرخاء. لكن هذا النجاح كله لم يمح من نفسه شعوراً بنقص ما. فلقد بدأ رحلة الصعود من وضع كان فيه مملوكاً، عبداً رقيقاً يشتريه تاجر ويرتهنه تاجر آخر، وتتجبر زوجة هذا التاجر به وتذله، وتُسخره خادماً لها. ولعله يسمع همساً يدور حول أصله هذا، أو يتخيل هذا الهمس كلما تحركت خلفه شفتان بصوت منخفض، ولعل من حوله يقدّرون سلطته ويهابونها، أكثر مما يقدّرون شخصه ويُجِلونه.

قال الراوي: «وفي بعض الأيام دخل إلى الديوان نجاب غريب الزي فتكلم فما فهم كلامه أحد إلاّ الملك، أجابه بلغته، وأمر له بالجلوس، واحترمه كثيراً، حتى تحير أهل الديوان من هذا الشأن، ثم إن الملك أخذ منه الكتاب وقرأه، فدمعت عيناه... وقالوا للملك ما جرى لك يا أمير المؤمنين، فقال الملك هذا النجاب الحامل الكتاب هو رسول... فلمّا تكلم عرفت ما تكلم به فاستبشر، وقال لي لا شك أنك أنت ابن سيدنا الشاه جمك... حاكم خوارزم العجم والدربندات..» ويُقدم له النجاب رسالة من الشاه جمك، تُنبئه بأن حجاج خوارزم المسافرين بطريق مصر «دخلوا الجامع الأزهر لأجل صلاة الجمعة، وإذ بك أنت مقبل إلى الجامع... فلمّا رآك الحجاج، قالوا إن هذا الملك يشابه ملكنا الشاه جمك، وما نحسبه إلاّ ابنه بالذات.. فأعلمنا يا ولدي هل أنت محمود ولدنا أم أن الحجاج أخطأوا..» ويجيبه الملك «إن الحجاج الذين أتوا من عندكم، ومروا بمصر، ونظروا إليّ، لم يخطئوا الحسبان، فأنا ولدكم حقاً... واعلموا يا والدي أن الذي جرى عليّ ما هو إلاّ من مُسيّر الأكوان، وإلاّ من أين لي أن أكون سلطان

مصر والشام لو ما جرت عليّ هذه الأحكام، فهذا مقدر عليّ من الأزل، وإن المقدر كائن لا ينمحي..» (٢٠٣ ـ ٢٠٥)

ونرى بيبرس في هذا الجواب يُبدي سعادته لأن «يكتشف» لنفسه أصلاً ملكياً، واعتزازه بأن ما حققه لم يأت عن طريق الإرث الملكي، وإنما عن طريق السعي في أوضاع قاسية، والتغلب على الصعاب... ونرى فيه أيضاً ومضة عن المفهوم الإسلامي للقدر. فالقدر لا يعني الاستسلام للظروف، مهما تبلغ قساوتها، بل التصدي لها والتغلب عليها؛ أي أنه الحاصل والنتيجة للتوافق بين السعي الإنساني والحكم الإلهي. فالإنسان مكتوب له قدر، ومفروض عليه السعي في الحياة. فإذا لبّى الغرض الإلهي وسعى فسيلاقي قدراً مكتوباً، وإذا تخلى عن السعي فسيلاقي عقاباً مكتوباً، لقاء تخليه عن واجب السعي.

ويقوم الملك بزيارة رسمية إلى شاه خوارزم في موكب باهر بعد أن ينيب ابنه السعيد على المُلك، ويحمل معه أغلى الهدايا. ويطلب شاه خوارزم من «ابنه» ثمن النسب الملكي الذي أمده به «ثم إن الشاه جمك قال لابنه، يا بُني إن الملك هلاوون عابد النيران مركب عليّ جزية كل عام، وإن هذه الجزية أرهقت الرعية، فالمراد يا بُني أن ترسل إليه أن يمنع عنا هذه الجزية، لأنه لا يقدر أن يخالفك في هذا المنوال، فقال السلطان على العين، ثم على الرأس، فحالاً كتب كتاباً وسلمه لإبراهيم وقال له، خذ هذا الجواب واعطه لمقدم من بني إسماعيل، وقل لمن يأخذه أن يضعه فوق رأس الملك هلاوون وهو نائم، ولا يزعجه ولا يضيقه ويرجع حالاً...» (٢٠٧) ويجيب هلاوون قائلاً: «من جهة الجزية التي نأخذها من والدكم في كل عام فهي منذ الآن ملغاة، ولا عُدنا نطلبها منه حسب رغبتكم، ونحن لم نعلم أن الشاه جمك هو والدكم، وإلاّ ما كنا رتبنا عليه مالاً أبداً..» (٢٠٩)

ولا يكفي بيبرس أن يجد لنفسه نسباً ملكياً، بل يهمه الآن أن يورث ولده السعيد هذا المُلك والنسب، فيبني بذلك سلالة ومُلكاً متوارثاً. غير أن السعيد لم ينشأ في ظل الأوضاع الصعبة التي نشأ فيها، بل نشأ وترعرع في القصر، ابن ملك، ومن حوله الجواري والخدم يلبون طلباته ويحضرون له ما يحتاج إليه من دون أن يكلف نفسه أي عناء. فلا بد من اختلاف الخلفية من أن يكون اختلاف كبير في الشخصية، وفي التطلع، وفي الإقبال على الدنيا والتمتع بما تعرضه من ملذات. ومهما يحاول الإنسان أن يجعل الجيل التالي من أبنائه على شاكلته، فإنه واجد أن تغير الأوضاع ودورة الأيام يباعدان بين الصورة التي يريدها وبين الواقع الذي يتوصلون هم إليه، ويصعب عليه أن يرى نفسه غير قادر على إيصال تجربته وحكمته إليهم، لتبقى المسيرة التي شقها مستمرة ومتطورة.

ذات يوم «دخل إلى الحريم فرأى ابنه السعيد سكران، وهو يعربد ويشتم الجواري والخدم، فغضب السلطان وأخذ قضيباً من الخيزران، وصار يضرب ابنه السعيد على رأسه وعلى بدنه، إلى أن تدخلت أمه في الأمر ووقفت بينهما، وأبعدت ابنها عن والده، فصار السعيد يبكي ويهدد فراحت من الملك التفاتة وجد ابنه يكوز يده، ويقول أنا له. ثم إن السعيد... صمم على أن يرحل عن والده فنهض قبل الفجر، ولبس لبس الدراويش وأخذ معه من المال ما وصلت إليه يده، وفتح باب السرايا، وسار طالباً البر الأقفر، إلى أن وصل إلى بورصة.» (٢٤٥) ويصحب الملك رفيقيه إبراهيم وسعد في رحلة للتفتيش عن ولده السعيد، فيلمحهم السعيد من غرفته في بورصة ويواصل هربه إلى بلاد الروم، فيأسره قطاع الطرق ويبيعونه من الوزير مرين... ويجدونه عند الوزير مرين الذي يعيده إليهم. وينشرح صدر مرين للإسلام ويدخل الإيمان قلبه، ويقول للملك «أريد أن أكون تحت حكمك وفي خدمتك حتى أموت... قال له السلطان إفعل ما تريد. ثم إن السلطان أخذ السعيد وسار، وقال له من الذي أغراك حتى تسافر إلى هذه الأرض ويستعبدوك. أُقسم بالله العظيم إنك لا تسافر معي إلاّ ماشياً على الأقدام ولا تقلع ثياب الأسر إلاّ في مصر...» (٢٤٧) وعاد السعيد إلى مصر ومن شدة حياته أقام في السرايا ولم ينزل منها أبداً.

هل تقصّد السعيد في ذهابه إلى بورصة أن يستعيد تجربة أبيه بحذافيرها؟ وهل جاء ذلك ليستعين به على فهم أبيه والتآلف معه؟.. إنْ كان ذلك فإن بينه وبين أبيه تجربة أُخرى، لا يدّ له فيها، لكنه يكاد يخسر حياته خلالها.

فلقد جاء نجاب من نائب الإسكندرية يُنبئ الملك بوصول مرين آتياً من البحر، فقال الملك لولده السعيد «إركب إلى إسكندرية واحضر سيدك مرين إلى هنا»، ويعيِّنه الملك أميراً من جملة أمراء الديوان. «وكان لمرين زوجة اسمها مرينة، فلمّا باع أملاكه قالت له ما مرادك، فقال قصدي أذهب إلى القدس فامتثلت له ولم تكن تعلم أنه أسلم. وركب وركبت معه إلى أن صار في مصر وأقام بها فأقامت معه. فقال لها أنا أسلمت فأسلمي.. فلم تُجب...

«... وبينما كان مرين ذاهباً إلى داره رآه شيخ جليل القدر ووراءه تلميذ... فقال له الشيخ... يلزمك أن تتعلم أمور دينك وتتفقه في الإسلام، فإذا أردت أتطوع أنا لك وأعلّمك في بيتك كل يوم بعد رجوعك من الديوان... فلمّا دخلوا البيت رفع الشيخ العمامة وشلح الجبة، وقال اعلم أن الذي يكلمك جوان... وما زال جوان يطغيه بدهائه ويغريه حتى ارتد إلى دينه، ثم قال لمرينة هل أسلمت أنت؟ قالت كلا أنا لم أسلم، فقال مرين وما العمل الآن قال له جوان... أطلب من

السلطان أن يسمح لزوجتك بالدخول إلى السرايا... عسى يميل قلبها إلى الإسلام.. فتقيم أياماً قلائل وتسلم إسلاماً باطلاً... وإذا قال لها تمني عليّ، تقول أتمنى يا مولاي أن أكون مُرتبة المائدة للملك، فإذا بلغت ذلك فهذه زجاجة السُّم ضعي منها في طعام الملك... فأعطاها الملك طلبها... إلى يوم من الأيام رتبت المائدة حسب عادتها وبسرعة سكبت سُماً من الزجاجة على قطع البطيخ.. أمّا الملك.. فجلس ليأكل.. فشعر بالألم في معدته.. فحالاً أخبروا الوزير شاهين وإبراهيم وشيحة جمال الدين. فقال شيحة أحضروا لنا طبيب الملك فوراً... فحالاً حضر وجعل يسقي الملك عدة مرات وكل مرة يستفرغ إلى أن فرغت معدته وخرج السُّم مع الطعام... ثم قال الملك لإبراهيم من هو المجرم الذي دس لي السُّم.. قال أظن أنها مرينة، فقال الملك لا أظن أنها تتجرأ على هذا المنكر لأني ما أسأت إليها قط، ولكني متأكد تماماً أن ابني السعيد هو الذي فعل هذا الفعل، لأني رأيته بعيني ينسل من غرفة الطعام، فقال إبراهيم معاذ الله أن يفعل ابنك هذا الفعل... وقال لإبراهيم إقطع رأسه، قال مهلاً يا أمير المؤمنين إن ولدك السعيد مظلوم.. فاغتاظ الملك من إبراهيم وصاح به ائتني برأسه فوراً... فقال إبراهيم أُكتب لي حجة بخطك أني لست مسؤولاً عن رأس السعيد ابنك، لأنك لا تعفو عني إذا ظهرت لك براءته بعد موته فأعطاه الملك ما طلب... فأخذه إبراهيم وأخفاه عن أعين الناس... ونزل إلى السجن وطلب مجرماً محكوماً عليه بالإعدام... فأخذه وقطع رأسه في طست بين يدي الملك وقال هذا عدوك يا ملك الزمان، قال الملك من خان لا كان ولا عمرت به أوطان.» ويجري بعد ذلك تحقيق هادئ في الحادث، فتعترف مرينة بكل شيء. «ودمعت عين السلطان على قتل السعيد وهو بريء من هذه الأفعال... وكلما دخل السرايا يجد امرأته تبكي وتنوح على ولدها... قالت لا يُشفى لي غليل حتى تقتل الذي قتل ابني، قال وما ذنبه وقد أخذ مني أمراً سلطانياً في قتله، فقالت اطرده من خدمتك...

«أمّا إبراهيم فصار يشعر بجفاء من السلطان وعدم الالتفات إليه، إلى يوم من الأيام، قال له الملك إعلم يا إبراهيم أني سمحت لك بالذهاب إلى ديارك حوران... فقال إبراهيم هل إبعادي بسبب تنفيذ أمركم... أمّا الوزير شاهين فقال، الحق عليك يا إبراهيم كان يجب أن تحقن دم السعيد... إلى أن تظهر براءته. عند ذلك تأتي بابن الملك حيّاً يُرزق وتنال الإكرام والإنعام الجزيل من الملك والوزراء... قال إبراهيم اجمعوا لي المال لأبشركم أن السعيد حيّ يرزق، وهو عندي بأمان.. وتبسم الملك وقال إن إبراهيم يحب المال كثيراً... فأسرع إبراهيم إلى السعيد... وسار به بموكب عظيم... وفرح الناس بسلامته... وصارت

المهرجانات الشعبية في كل مكان. وكثرت الاحتفالات والدق والرقص والغناء والزغاريد...» (٢٤٩ ـ ٢٥٥)

وتتوالى الأيام ويتوالى ورود النجاب بأنباء الاعتداء على البلاد الإسلامية، إمّا من قِبل الصليبيين وإمّا من قِبل التتر والمغول. فيتحالف الملك فرنسيس، صاحب مدينة سيس، مع أبرهة بن هلاوون ملك التتر، ويهاجمان حلب ويقتحمانها، ويتصدى بيبرس لهما، فيأسر أبرهة وفرنسيس ويقتلهما.

وينظم ملوك الصليبيين حملة واسعة شاملة للقضاء على بيبرس. فيحضر نجاب ليخبر الملك بـ «أن ملك الأفلاق ومعه أربعة ملوك قصدوا أنطاكية... وزحفوا منها إلى حلب... وإذ بنجاب آخر معه كتاب آخر... نعلمكم به أن ستة ملوك من الإفرنج... احتاطوا بدمياط وملكوا البر والبحر... فما انتهى الملك من قراءة الكتاب الثاني وإلاّ ونجاب يصيح... وناوله كتاب من الإسكندرية... فقد احتاطت بنا ستة ملوك من الإفرنج واحتلوا الميناء.» (٣٣٢) فيوجه جيوشاً إلى أنطاكية والإسكندرية. «ثم سار السلطان بجيشه إلى دمياط، وجد الأعداء ناصبين خيامهم فنصب خيامه، وإذ بأحد الفلاحين يطلب الإذن بمواجهة الملك، فأذن له، ودخل وسلّم عليه ودعا له بالنصر والظفر، ثم قال إنا نريد أن نشترك معكم في الجهاد وفي سبيل الله، وقد خطرت لي فكرة تساعد عساكر المسلمين على هلاك عدوهم والنصر عليه. فقال السلطان وما هي هذه الفكرة، قال يا مولاي أنا عُمدة في هذه الديار ولي خبرة في مياه النيل، فإذا أمر السلطان أن نحصر المياه في هذه الناحية، ثم نفتحها على الأعداء فتغرقهم، وهذا الأمر يحتاج إلى ثلاثة أيام... فقال له الملك وهل تريد مساعدة، قال ترسل معي يا مولاي بعض الجنود لنجمع الفلاحين والعمال لأجل سد المحلات التي تتسرّب منها المياه من الترعة، ونحفر المحلات المرتفعة لتجري المياه بسرعة وتغرق جيش العدو بأكمله، فأرسل معه السلطان بعض الجنود، وقال للعُمدة... ها أنا سوف أطاول الأعداء حتى تنهي أعمالك... فتطوع ما ينوف عن عشرين ألف إنسان وهم يحملون المعاول والفؤوس والمجارف وبدأوا بالأعمال على أتم ما يرام بمدة ثلاثة أيام، ولم يبق عليهم إلاّ فتح المياه. فذهب العُمدة وأعلم السلطان بانتهاء المشروع، فقال السلطان اعملوا حسابكم على أن تصل المياه إلى الأعداء مساء غد بعد ما يرجعون من القتال لأنهم يكونون منهوكي القوى فيجلسون ليأخذوا راحتهم ويناموا فتغمرهم المياه... أمّا السلطان أمر العساكر أن يبتعدوا عن هذا المكان وأن يراقبوا الأعداء من جميع الجهات حتى لا يهرب منهم أحد، لأن المياه سوف تغمرهم وتغرقهم. أمّا العُمدة حسنين أمر الرجال بتحويل المياه، ففتحوا لها السدود فسارت المياه مثل السيول الجارفة... دبّ فيهم الذعر

والهلع، وعلا صياحهم والمياه تجرفهم، ولكن أين المفر، فمن تمكن منهم من إنقاذ نفسه كانت له سيوف المسلمين بالمرصاد... فما طلعت الشمس إلاّ وقُضي على جيش الأعداء... والقليل النادر الذي له عمر طويل، فلحق بالمراكب ونفد بروحه...» (٣٣٢ ـ ٣٣٤) «ثم أمر السلطان بالسير إلى الإسكندرية... فللّه درّ الملك الظاهر فقد فتك في الأعداء فتكاً ذريعاً، والمقدم إبراهيم الحوراني أبلى بلاء حسناً... أمّا مراكب أبو علي البطرلي فقد هاجمت ميناء الإسكندرية وخرجت عساكره إلى البر.. وقاتلت الأعداء، واحتاطت بهم من كل الجهات... فانحلّت عزائم الأعداء... وما بقي للعدو من أثر» (٣٣٥ ـ ٣٣٦) ويتوجه الملك الظاهر إلى أنطاكية ليقاتل بجانب الجيش المحاصر لها، ويرتب شيحة جمال الدين خطة لاقتحام أحد أبوابها. «وقد وصل الخبر إلى السلطان بفتح باب أنطاكية، فصاح بالجيش اهجموا على البلد، فهجمت الفرسان... واحتلت أنطاكية، وأسروا الملوك التي فيها..» (٣٣٨)

ويحس الملك بوطأة الأيام عندما يصل موكب الموت إلى رفاقه في السلاح والجهاد، أبطال معاركه، وأصدقاء عُمْره، وأوفياء عهده. «ففي ليلة من بعض الليالي رأى السلطان الظاهر في منامه، أنه واقف في الميدان الأخضر في دمياط، والناس مجتمعين على رجل مريض ينظرون إليه بمحبة وشوق... ولمّا طلع النهار ذهب إلى الديوان وسأل عن جمال الدين شيحة فتقدم شخص وقال له، هو في دمياط، إلحقه فإنه ينتظرك، وذهب الشخص لحال سبيله، فنزل السلطان من الديوان... ثم ركب جواده وسار إلى دمياط، فوضع حصانه في خان ومشى في أحد الأسواق، فوجد أُناساً يدخلون إلى مكان فدخل معهم، فرأى جمال الدين مريضاً مرض الموت، فجلس عند رأسه، وتذكر أيامه الماضية، وأياديه البيضاء، وإخلاصه في الجهاد في سبيل الله، وإخلاصه للسلطان وللدولة، فدمعت عيناه حزناً وشفقة عليه، ثم قال لا بأس عليك وزال الشر إن شاء الله، فسمعه شيحة وفتح عينيه، فرأى الملك الظاهر يعوده، فتبسم وقال الحمد لله الذي رأيتك قبل أن أنتقل من هذه الدنيا الفانية، وإني مشتاق لرؤيتك كثيراً، وقد أرسلت ولدي إليك، وهو الذي أخبرك أني في دمياط...» (٣٣٩ ـ ٣٤٠)

ثم يلحق بشيحة بطل آخر... «فبينما كان الملك الظاهر نائماً في إحدى الليالي، رأى في منامه سيدي عبد الله المغاوري يقول له، إعلم يا محمود أن خالك البطرلي على وشك السفر، ولا بد لك أن تودعه، وهو مقيم بالإسكندرية... وجلس يفكر في المنام... وإذ بالمقدم إبراهيم الحوراني يدخل عليه... فقال إبراهيم... ربما يكون تفسير منامك أن المقدم البطرلي في أواخر أيامه، فعلينا أن

نذهب إلى الإسكندرية ونودعه، فركب السلطان وإبراهيم وسارا، وإذ بسعد آتياً ليزور السلطان. . . فقال له السلطان إذهب معنا إلى الإسكندرية لنعود المقدم أبو علي البطرلي. . . فبعث إبراهيم سعداً إلى نائب الإسكندرية. . . فسأله الملك الظاهر عن أبي علي البطرلي، فقال له أطال الله عمركم. . . انتقل صباح هذا اليوم إلى رحمة الله، ومرادهم يدفنوه باللاذقية حسب وصيته، فتأسف السلطان عليه. . . ثم سار إليه لتشييع جنازته، فرأى قادة الجيش وجنود البحرية يحتفلون بتشييع جنازته، فلمّا رأوا السلطان، وقفوا له على الصفين وأخذوا له التحية. . . إلى أن دخل محل أبي علي البطرلي، فرفع الغطاء عن وجهه وقبّله. . . وصلّوا عليه في أحد المساجد، ثم ساروا به إلى أن وصلوا إلى الميناء وأنزلوه في مركب من المراكب، فوقف الملك وعزّى أولاده وأقاربه، ثم رثاه مُبيّناً فضله وجهاده في سبيل الله ورضاء رب العالمين. ثم قال لقد عاش عظيماً ومات سعيداً، فهنيئاً له بالخلود في جنات النعيم، ثم وقفت العساكر البحرية والجنود مؤدين له التحية. . . ورُفعت المراسي والشراعات، وساروا به إلى اللاذقية، ودفنوه هناك، وقبره مشهور يزوره الناس. .» (٣٤١ ـ ٣٤٢)

«وفي يوم من الأيام شعر الملك بأن الشباب قد ولى وحلّ محله الشيب، وأن القوة والصحة قد ذهبتا، وحلّ محلهما الضعف وارتخاء الأعضاء والمفاصل، فقال لابنه السعيد، أنا دخلت في سن الشيخوخة وما بقي عندي جَلَد لأقوم بهذه الأعباء، وأُدافع عن بلاد المسلمين دفاع المجاهدين الأبرار، فاجلس مكاني على عرش مصر، فأنت خليفتي من بعدي، ولا تتأخر لحظة واحدة في الدفاع عن المسلمين وعن بلادهم، وجاهد في سبيل الله حق الجهاد.

«ثم بايعه الوزراء والأمراء والنواب وأعيان البلاد وصار ملكاً على عرش مصر، واندقت باسمه العِمْلة، وخطبت الخطباء على المنابر تدعو له بدوام العز والنصر. .» (٣٤١)

«أمّا السلطان الظاهر فإنه. . لمّا كانت أيام الحج جهز نفسه لأداء الفريضة، فقال له الوزير قلاوون، وأنا أيضاً أُريد أن أحج معك. . . ثم سار قلاوون مع السلطان إلى مكة المكرمة وأديا فريضة الحج، ثم زار المدينة المنورة، وطلب السلطان من قلاوون أن يُقسم له ويعاهده أن لا يخون به ولا بأولاده قط. . .» وخان العهد والإيمان. . . «ودس له سُمّاً في طعامه. . . وأحضروا له الحكماء ففحصوه فوجدوه مسموماً، فقال إبراهيم ما سمّه إلاّ قلاوون، فأقسم قلاوون أنه لم يفعل هذا. . . فقال السلطان لا تظلمه يا إبراهيم فإنه أقسم معي عند مقام الرسول أنه لا يغدرني ولا يخونني، لا أنا ولا أولادي. . وبعد سبعة أيام توفي الملك الظاهر ودفنوه بدمشق. . . وضريحه معروف يُزار. . .» (٣٤٢ ـ ٣٤٣)

وهكذا تنقضي حياة الملك الظاهر بيبرس، بعد أن حقق انتصاراً كبيراً آخر وأخيراً على الصليبيين، وبعد أن كسر شوكة التتر والمغول، وألحق بهم الهزائم التي فلَّت من عزيمتهم، وأزالت الرعب الذي نشروه، فمكنهم من اكتساح البلاد الإسلامية، والإمعان بالقتل والتدمير في أرجائها. هكذا تنتهي حياته بالقضاء على جوان، وإنزال القصاص به، رغم ما بذله جوان من جهد وسعي دائب ومن حيلة، في تأجيج نار الحرب والعداوة ضد المسلمين، غرباً وشرقاً على أرضهم، حرباً، وفتنة، وتآمراً، وتخريباً، وباستعادة معظم الساحل الشامي، بحيث لا يبقى في يدهم سوى عكا وصور وصيدا وطرابلس، وبإجلاء التتر والمغول من الداخل الشامي تمهيداً ليوم يُدخلون فيه حضارة الإسلام.

لقد حقق الملك الظاهر ما أراده لنفسه، وأصبح ملكاً على مصر والشام، وخُيِّل إليه أنه أصبح مؤسساً لسلالة ملكية، فورّث ابنه العرش الذي اكتسبه، أو اغتصبه. لكن لم يغب عن باله لحظة واحدة، وهو يحارب ليصد الهجمات عن مصر والشام، أو ليحظى بالمُلك ويحتفظ به، أنه «يدافع عن بلاد المسلمين دفاع المجاهدين الأبرار، وما تأخر لحظة واحدة في الدفاع عن المسلمين وبلادهم، وجاهد في سبيل الله حق الجهاد.»

ولو أن الرواية اقتصرت على النصر الذي أنجزه بيبرس، والإرث الذي خلفه لمن بعده، لكانت أقرب إلى التأريخ منها إلى العمل الفني. ولو أنها اقتصرت على أن تصور سيرته، ومراحل تثبيت أقدامه، وانتقاله من نجاح إلى نجاح، ومن موقع إلى موقع أعلى منه، ثمرة لنجاحه، واستعانة بقدرته وكفاءته، وتقوياً به في الشدائد والملمات، لكانت أقرب إلى كتب السيرة منها إلى الرواية.

لكن هذا العمل الكبير يدخل إلى صُلب الرواية قصة تندمج بها، فتوضح موضوعها، وتنير معناها، وتوسع آفاقها، وتعمق رؤيتها، وتعلي إشرافها، وتنقلها إلى رحاب الأدب العظيم، لتصبح في تركيبها الكلي، وتكاملها الشمولي، واحدة من أروع الآثار التي خلفها لنا الأدب العالمي. وتلك هي قصة مريم بنت ملك جنوا، ومعروف بن جمر سلطان القلاع والحصون.

ثالثاً: معروف ومريم

قال الراوي: «في يوم من الأيام بينما الملك (الصالح أيوب) جالس وإذا بنجاب... أخرج الكتاب... ففضه القاضي وقرأه، وإذ فيه خطاباً من نائب الإسكندرية... (عن) مركب مقبل ورافع علم الأمان، إلى أن وصل الثغر ورمى

المراسي، وإذ طلع منه وزير ومعه أتباع فسألناهم عمّا يريدون فتقدم كبيرهم، وقال أنا وزير ملك جنوا، ومعي كتاب وهدايا للسلطان، وأُريد مواجهته، قال الملك أعطوا الكتاب للقاضي حتى يقرأه، وإذ به خطاباً من ملك جنوا. . . إن ابنتي مريم قد اعتراها مرض، فنذرت على نفسي إن طابت أن أزوّرها بيت المقدس، والآن شُفيَتْ وأُريد أن أفي بنذري فأرسلت إليك طالباً السماح لها بالمرور وأن ترسل من طرفكم حارساً يحرسها من يافا إلى القدس، ومن القدس إلى يافا. . . وأمّا الهدية فالأمل قبولها منا والسلام. . . ثم إن الملك، قال لرجل من الأكراد قُم يا ابن العم واحرس البنت. . . فقال له يا مولانا إن الحراسة ما هي علينا، وإنما على سلطان القلاع والحصون، فقال الملك ما اسمه، قال معروف بن جمر، قال أُكتب له كتاباً واكتب فيه يحرس البنت. . . ثم ختم الكتاب وأعطاه للأمير بيبرس، فنزل بيبرس من الديوان. . . وسار طالب قلعة صهيون. . إلى أن دخل السلطان. . . وناوله الكتاب، وقال لبيبرس لأجل خاطرك وخاطر سيدي الملك الصالح لا أحد يحرس البنت غيري، ولا آخذ أجرة أبداً. . . وسار إلى يافا مع بعض الرجال.» (١٢٠ ـ ١٢١)

«أما بيبرس فإنه بعد أن ودَّع المقدم معروف وسار، قال في نفسه إن هذا الرجل صاحب عزّ ووقار، وقد ظهر منه الاحتشام والهيبة وعلو المقام. . . أمّا المقدم معروف فإنه لمّا وصل إلى يافا نزل هناك مع رجاله، وأقام ينتظر البنت مدة خمسة أيام، وإذ أقبل المركب من ظهر البحر وأرخى مراسيه، نزلت منه مريم بنت ملك جنوا ونزل معها الخدم والمرافقين، فلمّا استقرت بالجلوس، وصل الخبر للمقدم معروف، فسار إلى صيوانها. . . وقال لهم خبروا الملكة أني أنا الحارس لها، فأذنت له بالدخول، فلمّا رأته نهضت على الأقدام، وقد أخذتها منه هيبة ووقع حبه في قلبها. فقالت له أنت الحارس، قال نعم، قالت له مرحباً بك، إجلس يا سيدي، فجلس معروف، فقالت له ما اسمك، قال معروف، فأمرت أتباعها بإحضار الطعام والشراب، فأحضروا ما لذّ وطاب. . . ثم بدأ يحرسها هو ورجاله، وثاني يوم أمر الرجال بالارتحال، فحملوا الأموال والأثقال، على ظهور الخيل والبغال، وركبت مريم في تخت معروف ورجاله راكبين على الخيول ومحتاطين بها وبأتباعها، إلى أن وصلوا إلى بيت المقدس، فأمر المقدم بالنزول، وقال لها ها هو بيت المقدس فادخلي. فنهضت مريم ودخلت القدس ومعها المقدم معروف وأتباعها، وصارت تنتقل من مكان إلى مكان إلى أن وصلت إلى القيامة، فزارت ووهبت، ثم خرجت من القيامة ومعها حارسها المقدم وأتباعها، فسارت فرأت المسجد الأقصى، فقالت للحارس أيسمحون لي أن أدخل، فقال لها لا بأس، بشرط أن لا يدخل أتباعك، فأدخل أنا وأنت. فوافقت ودخلت مريم مع حارسها، وصارت تتأمل في الجامع،

وزارت قبة الصخرة المشرفة، فانشرحت وقالت للمقدم إن نفسي زهت لرؤياي هذه القبة الشريفة وهذا المقام. وصارت تتنقل من مكان إلى مكان فرأت الأستاذ الإمام النووي وصحبته أهل العلم، وهو يقرأ عليهم والطلبة حواليه، فقالت للمقدم من هذا، قال لها إن هذا الشيخ عالم جليل يلقي العلم على تلاميذه، قالت إني رأيت مناماً أُريد أن يفسره لي... فقال لها قولي ماذا رأيت، فقالت رأيت نفسي في وادٍ لا ماء فيه فعطشت، فرأيت نهراً أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وأنا في شدة الظمأ، فأخذت منه غرفة وشربتها... ثم تأملت في ذلك النهر، فرأيت مركباً ونزلت فيها، وعديت إلى البر الثاني، وطلعت من المراكب في وادٍ وسيع ذي أنهار وأطيار وأشجار، فرقدت تحت شجرة عالية، وإذ بطير نقرني بمنقاره، فخرج مني طير ففرحت به، وإذ بطير أسود قد انقض عليه، وأخذه مني وطار به حتى غاب عني، فجعلت أبكي عليه، فانتبهت من منامي... فقال لها الشيخ... إعلمي أن الوادي هو مكانك الأقفر، فأمّا السفينة فهي سفينة النجاة، وأمّا الطير الذي نزل عليك، هذا رجل كبير من الأشراف يتزوج بك وتأتي منه بذرية صالحة، ولكن تتربى بعيداً عنك، وهذا تأويل منامك والله أعلم... وأسلمت إسلاماً صادقاً، ثم قالت للشيخ... ليس لي رجعة إلى بلادي، فمرادي أن أتزوج رجلاً يكون لي عضداً ومؤنساً... قالت لن أجد أفضل من هذا الرجل وأشارت إلى المقدم معروف... فلمّا سمع معروف ذلك الكلام، أَعلم الشيخ.. كيف أن الملك أرسله حارساً لها، قال له الشيخ يا ولدي أنا أكتب لك كتابها وأُعطيك فتوى... وعقد الشيخ العقد، ثم كتب لهم الفتوى وختمها وسلمها لمعروف، وأمر مريم أن تلتف بالشال ولا تخرج مثلما دخلت ففعلت...» (١١٩ ـ ١٢٤)

وطلب الوزير المرافق لمريم من معروف أن يعطيه بنت الملك، فأبلغه أنه تزوجها، فقال له «يا سيدي اقتلني لأني لا أستطيع أن أرجع إلى جنوا بدونها، فقال المقدم معروف، نحن لا نجبرها على الذهاب أو البقاء عندنا فاسألها عن رأيها، ثم أمر بإحضار مريم، فلمّا حضرت سألها الوزير ورغبها في العودة إلى بلادها، فأبت أن ترجع، عند ذلك خرجوا من عنده، وساروا إلى يافا ونزلوا في مركبهم طالبين جنوا...» (١٢٤)

وكتب ملك جنوا إلى الملك الصالح محتجاً، «فقال الملك أرسلوا لنا خبراً إلى بيبرس يحضر لنحقق هذه الدعوى... فقال الملك أهلاً بولدي بيبرس، أما تدري ما فعل المقدم معروف صديقك... إذهب يا بيبرس هات لنا البنت، وهات معروف بن جمر... ثم ركب ومعه عثمان... فلمّا وصلوا استقبلهم المقدم معروف... ولمّا جن الليل، قال الأمير بيبرس، يا أخي بالله عليك أنت الذي

أرغمت مريم أن تُسْلِمْ... ومن أمرك بالزواج بها، فحكى للأمير ما جرى بالتمام، وقال هذه فتوى من شيخ الإسلام النووي... فقال الأمير والله يا أخي إن هذه الحجة قوية وشرعية، ولكن أُعلمك أن ملك جنوا أرسل إلى أمير المؤمنين يطلب بنته... ومن الرأي إني أعود أعرض عليه هذا الأمر فيرسل إلى ملك جنوا ويعرفه بالواقع، فقال له المقدم معروف، إن كان الأمر كذلك... من الرأي عندي أن أسير بنفسي إلى ملك جنوا وآتي به إلى أمير المؤمنين... فقال له الأمير بيبرس لقد قلت الصواب...» (١٢٥ ـ ١٢٦)

لكن ملك جنوا يرسل من يخطف ابنته، فقد استدرج معروف ليخرج ويتركها برفقة حارسين، ولمّا عاد وجدهما مغشياً عليهما «فتفقد زوجته مريم فلم يجدها، ثم إن معروف صار ينعي مريم وهو يبكي، وعلم أيضاً أنها حامل منه، فزاد لذلك وجْده وتلهب فؤاده وتحسر.» (١٣١)

وفي رحلة المركب إلى جنوا تهب عاصفة وتوقف المركب في جزيرة العرانيس، «أمّا مريم فقد دبّ فيها الطلق، وزاد بها الوجع... فرأت حوضاً فنزلت فيه، فوضعت غلاماً ذكراً... فمدت له ثوبها في ذلك الحوض... وقالت أودعتك عند الملك الديان... لأن يا ولدي هنا آمن عليك، لأني إذا أخذتك يرمونك في البحر..» (١٣١) ويعثر الملك كنيار على الطفل ويربيه. ويذهب معروف إلى جنوا، ويلتقي بزوجته فتطلب منه أن يفتش عن ولدهما ويأتيها به، ويكتشف معروف مكان وجود الطفل، لكن الملك كنيار يحس به ويعرف هويته... «ثم أتى بقيود وأغلال وقيَّده من رجليه ويديه.. وسار به إلى سجن مبني من الرصاص والبحر يحيط به...» (٣٤)

وحينما غاب معروف بن جمر، كان من أول ما عمله الملك الظاهر بيبرس عند مبايعته بالملك أن «بعث مكاتبات إلى مقدمي الحصون والقلاع بالحضور إليه بدون إمهال. فحضروا بالحال، فأمّر عليهم... شيحة جمال الدين، وجعله سلطان القلاع والحصون، وقال لهم... هذا أمير عليكم إلى أن يظهر ويرجع إليكم سلطانكم المقدم معروف بن جمر، فقالوا بالإجماع سمعاً وطاعة، فأقامهم في الديوان وجعل لهم المعاشات، وجعل لكل مقدم راية وكرسياً بالديوان، ومحل إقامة له ولرجاله..» (١٥٣)

لقد وفَّر غياب معروف بن جمر فرصة مفاجئة لبيبرس، انتبه إليها منذ اللحظة الأولى لتولِّيه المُلك، وتلك هي ترويض بني إسماعيل، ودمجهم في القدرة الحربية الإسلامية دمجاً كاملاً. فلقد تعرف إليهم منذ أيامه الأولى في دمشق، حيث بدا لنا أن والدته بالتبني، فاطمة الأقواسية، كانت على صلة بهم، بل ربما كانت واحدة

منهم. وقد لبُّوا نداءها بالوقوف إلى جانبه في صراعه مع نائب دمشق، ذلك الصراع الذي لم ينته إلاّ برحيله من دمشق إلى القاهرة. ولقد خبرهم كقوة ظاهرة وخفية في شتى الميادين، وتحسب منهم. ثم إنه لمّا أرسله الملك الصالح ليقابل معروف بن جمر في قلعة صهيون، ليكلّفه بمهمة حراسة أميرة جنوا، شاهد ما أثار في نفسه الخشية.. «ما زال سائراً حتى وصل القلعة، فطلب الإذن بالدخول إلى الحصن، فقال له الأتباع من تكون وماذا تريد، قال أُريد مواجهة سلطان الحصون، ومعي كتاب إليه من أمير المؤمنين بمصر، قالوا له انتظر لنخبره بالأمر، فغابوا قليلاً وأتوا، وقالوا له أدخل، فأوصلوه إلى قاعة كبيرة، والرجال يمين وشمال شاهرين السيوف، إلى أن دخل على السلطان...» (١٢٠)

ويبدو أنه لم يكن مرتاحاً لتصرف معروف مع الأميرة، ثم إن القاضي، أو جوان المتنكر قاضياً، انتهز الفرصة ليُلقي ظلاً من الريبة على سلوك بيبرس نفسه... «قال يا مولانا السلطان، هذا الملك قد جعل بنته تحت أمانتك، وأنت بعثت بيبرس وأعطيته كتابك وأمانتك، وسار، وقد اتفق مع سلطان القلاع فأخذها وتزوج بها، وقد طرد أتباعها، فقد أضاعوا أمانتك وزمامك. إن هذا شيء لا يصح أبداً، وإن هذا الغلام بيبرس هو أصل العمل...» (١٢٥) وعندما واجه بيبرس معروف بن جمر محققاً في هذه القضية، وأبرز له معروف فتوى شيخ الإسلام النووي، أجابه جواب الرجل المسؤول.. «والله يا أخي إن هذه الحجة قوية وشرعية، ولكن أُعلمك أن ملك جنوا أرسل إلى أمير المؤمنين يطلب بنته، وتكلم القاضي في حقنا بما لا خير فيه..» وبعبارة أُخرى فإن معروفاً بتصرفه العاطفي اللامسؤول، قد ورط كلاً من أمير المؤمنين وبيبرس، ووضعهما في وضع من خان الأمانة.

وعندما غادر معروف موضعه فإنه أقام ابن أخته عماد الدين مكانه... (١٢٦) وها هي الأيام قد دارت، وأصبح سجيناً في مكان ناء مجهول، فلا يتوانى بيبرس لحظة واحدة، ويعيِّن في مكانه لا عماد الدين بل شيحة جمال الدين، ويسلّم بذلك إلى هذا الرجل الفائق الكفاءة مهمة فائقة الحساسية والأهمية.

ويستثمر الملك الظاهر غياب معروف في غاية الدهاء. إذ يقول لبني إسماعيل، كما شاهدنا بأن شيحة «أمير عليكم إلى أن يظهر ويرجع إليكم سلطانكم المقدم معروف بن جمر...» فالتعيين، في ظاهر الأمر، تعيين موقت. وتتفرع القصة هنا إلى خطين يفترقان بداية ويلتقيان نهاية، أحدهما يروي كفاح شيحة جمال الدين في ترويض الإسماعيليين، في ظل ارتباكهم نتيجة لغياب معروف بن جمر وخلو مقعد القيادة، والثاني يصف محنة معروف في السجن، وعملية تحريره وإنقاذه.

فعلى الرغم من الطاعة التي أظهرها بنو إسماعيل لهذا التعيين، ساعة أعلمهم السلطان به، فلقد بدأ التمرد عليه على الفور. وتنبئنا القصة أن كلاً من الملك الظاهر وشيحة جمال الدين، كان يتوقع هذا التمرد، وقد أعد له عدته. فأول متحد لهذا التعيين «فخر الدين حسن» من بني إسماعيل، الذي كان «من الرجال الذين ذهبوا للتفتيش عن معروف بن جمر، فلمّا وصل إلى قلعته... سأل عن القلاع ومن السلطان عليها... فقالوا له قد تسلطن على القلاع رجل من عرب غزة يقال له شيحة بن سيف القبائل... فقال أنا أعرف بيبرس... وإنه يستأهل السلطنة، لكن أخطأ بسلطنة شيحة علينا، سأذهب... وأرى ذلك الأمر... وثاني يوم سار طالباً يافا (وكان السلطان محاصراً لها بجيشه)، ورأى الكفير بالميدان (أحد أبطال الصليبيين)، وهو يغير على الفرسان فصدمه وقتله... فقال الملك الظاهر من هو هذا الفارس، قالوا لا نعلم... قال أنا المقدم فخر الدين من بني إسماعيل... فجئت لأُجاهد في سبيل الله... فترحب به الملك وقال تمنّ عليّ يا هذا، فقال ما أتمنى... سلطنة القلاع والحصون، فقال الملك تمنّ غير هذا، فقال لا أتمنى غيرها. فقال الملك في نفسه لنجرِّب هذا الرجل ونرى بطولته، فقال له إنْ كنتَ تريد سلطنة القلاع، فاقبض على أعدائنا الملوك وجوان..» (١٦٠ ـ ١٦١) وكما سبق أن رأينا، فإنه يدخل المدينة فيقبض الصليبيون عليه ويودعونه السجن، لكن شيحة الذي كان قد سبقه بالدخول إليها، ووصل إلى السجن وقتل السجّان، وتنكّر سجاناً مكانه، ينقذه «فتعجب المقدم فخر الدين، وقال له من أنت، قال أنا شيحة... فقال ما دامت هذه أفعالك، فأنا خادمك الأمين، فسأله جمال الدين ما سبب مجيئك... فقال إني تعهدت للملك بفتح البلد وأخذ الملوك وجوان والبرتقش إليه... فقال له شيحة أبشر فأنا أُساعدك... ثم إن جمال الدين خلص الأسارى الموجودين بالسجن، وقال للمقدم خذ الملوك وجوان والبرتقش، وهؤلاء الأسارى إخوانك يساعدونك... وتقدم إليه المقدم فخر الدين حسن وسلم الثلاثة ملوك وجوان والبرتقش..» (١٦١ ـ ١٦٢)

يتميز تمرد فخر الدين حسن بأنه تمرد على شيحة وحده لا على السلطان. فقد قال عن بيبرس إنه يستأهل السلطنة، ثم إنه وضع نفسه وسلاحه في صف السلطان لا ضده في أثناء المعركة، فاستحق معاملة كريمة.

وفي هذه الحادثة، نشهد أول مرة لمحة عن شخصية شيحة جمال الدين، وبسالته النادرة، وحيلته الواسعة، ومرونته الكبيرة في التعامل مع الناس، وحتى من جاء منهم لينافسه. ونراه هنا يقدم إلى فخر الدين، بعد أن ينقذه، النصر الذي سعى له، والمجد الذي بحث عنه، ويعطيه الفخر بأن يقدم الملوك وجوان والبرتقش إلى

السلطان، بينما هو قادر على أن يحفظ الظفر لنفسه، وبحق، فينال عرفان فخر الدين وتقديره وولاءه. «ما دامت هذه أفعالك فأنا خادمك الأمين.»

ثم ظهر متمرد آخر على هذا التعيين هو المقدم نسر بن عجبور؛ إذ يعلمه ابن أخته مصعب بأن المقدم معروف لم يظهر «ولكن قد تسلطن على القلاع واحد من غير بني إسماعيل. فسار حتى أتى قلعته، فسلمت عليه رجاله، ثم نظر إلى باب القلعة فرأى مكتوباً عليه اسم جمال الدين سلطان القلاع والحصون، فقال ومن جعله سلطاناً علينا، قالوا له الملك الظاهر، قال هذا معزول، قالوا إفعل ما بدا لك، فإن قدرت عليه أطعناك، وإن هو غلبك فنحن على ما نحن عليه من إطاعة الرجل...» (١٧٠) ويقابل شيحة وهو متنكر بصورة درويش (ولعله في مهمة استخبارية) ويتعرف عليه «ألست بالله جمال الدين شيحة، فقال له أنا سلطان الحصون فماذا تريد، قال له النسر مرادي أنصحك أن تترك السلطنة، وتمضي إلى حال سبيلك، قال له إن شاء الله يا مقدم.. وأنت أحق بها مني ومن غيري، قال صدقت إمض إلى حال سبيلك...

«... ثم إن المقدم نسر ذهب إلى قلعته وحكى لرجاله أنه (شيحة) تنازل له عن السلطنة، فقالوا له يا مقدم استيقظ لنفسك، واعلم أن بينك وبين السلطنة كما بين الأرض والسماء... سوف ترى الآن يا مقدم، خذ حذرك من هذا الرجل لأنه لا يصطلي له بنار، والملك ما سلطنه علينا إلاّ وهو جدير بها... وعرض على والده ما قالوه له، قال له أبوه ما تكلموا به صحيح، فطعه وخلصنا من هذا الأمر...» (١٧٠) وفضل نسر المجابهة، فاحتال شيحة ووصل إليه، وبنجه وجعله في حرام ودلاّه من أعلى السور «وسار به إلى الخلوات، وأقبل به إلى غابة الغابات وصحاه... وقال له أنت تقول لي أُترك السلطنة... فهل السلطنة جبّة أشلحها وألبسك إياها... أمّا إذا أطعتني فإني أُسامحك..» (١٧١) «ثم أخذه وسار طالباً مصر، وكل ما وصل به إلى مكان يضربه علقة... وأَدخله سرايته...» وجاء والده إلى مصر، وطلب من إبراهيم أن يتوسط «بينه وبين سلطان الحصون فقال إبراهيم... على شرط ابنك يطيعه، وإلاّ ما يخلص من شره.. فلمّا دخل المقدم إبراهيم عليه... صار يسرد له مناقب جمال الدين شيحة، وألاعيبه ومقدرته. فخفف النسر من عناده، وقال كما تأمر يا ابن العم، أنا أُطيعه، فذهب إبراهيم إلى جمال الدين شيحة، وقال له أطاعك الرجل، ففرح ودخل عليه وصافحه، وأخذه بين أيادي السلطان، فقدم الإطاعة للسلطان ولجمال الدين، فأنعم عليه الملك، وترحب به، وجعل له كرسياً بالديوان...» (١٧٢) ونلحظ هنا تطوراً في التمرد، إذ يتجه الآن إلى السلطان نفسه. كما نلحظ تذبذب الإسماعيلية بين الولاء للسلطان والخروج عليه «فإن

قدرت عليه أطعناك، وإن هو غلبك فنحن على ما نحن عليه من إطاعة الرجل.»

وبعد انتهاء تمرد نسر بن عجبور ثار حسن المشناتي... «إذ إن حسن المشناتي لمّا فتش عن معروف ولم يجده، شكت نفسه من الغربة فعاد طالب الأوطان إلى أن أتى إلى قلعته... فرأى في صدر القاعة مكتوباً سلطان القلاع والحصون شيحة... وسأل... فلمّا سمع ذلك الخبر ضحك حتى استلقى على قفاه، وقال شيحة مقتول، والظاهر معزول، وما أحد سلطان الأرض بالعرض والطول، إلاّ المقدم حسن المشناتي...» (١٧٣) «وسار إلى طرابلس الشام (وهي بيد الصليبيين)، ودخل إلى الديوان، ورأى جوان سلّم عليه، قال... قد جئت إليك يا جوان لأساعدك على الملك الظاهر... فقال له جوان مرحباً بك، وسلطنوه (الصليبيون) على القلاع والحصون، ثم أمر بدق طبل الحرب، وفتحوا باب البلد، وقال جوان، يا مقدم إنزل إلى الميدان، وأرِنا فروسيتك، فأجابه إلى ذلك، ونزل إلى حومة الميدان، ونادى من عرفني فقد اكتفى، ومن لم يعرفني فما بي خفا، أنا المقدم حسن المشناتي سلطان القلاع والحصون.. فلمّا سمع الملك ذلك الكلام، قال أبرزوا إليه.. فأسر خمسة من الأمراء... ولم يزل على ذلك الحال مدة ستة أيام وقد أسر ثلاثين بطلاً من أعيان الدولة، وجوان يشكره على ذلك... ثم إن الملك قال، يا إبراهيم خذ سعداً وادخل به على البلد لعلكم أن تجدوا لنا مدخلاً... وأخذ سعداً... إلى أن وصلا إلى الأسوار فرميا مفرداً، ونزلا إلى البلد. ثم سارا من مكان إلى مكان حتى وصلا إلى خمّارة... فاستقبلهما صاحب الخمّارة... فقال لهما هل عرفتماني، قالا أنت صاحب الخمّارة، قال لهما أنا جمال الدين شيحة... ثم قالا إن الملك ضيق الصدر من هذا الحال ولا سيما من حسن المشناتي... فقال جمال الدين لا يكون لكما فكرة من هذا القبيل. سأجيء به طائعاً مختاراً... وإذ بالمقدم حسن المشناتي يمر... وعبر إلى الخمّارة وجلس، أتاه بالخمر فشرب وداخ وغاب عن الوجود... وصحاه فقال، أين أنا فقال له... الخمّار المهم أن تطيعني... فعند ذلك أخرج جمال الدين السوط من وسطه، فلمّا رآه المقدم حسن ضحك، وقال ما هذا يا رجل، قال هذا مؤدب العُصاة... ثم إن جمال الدين رفع يده بالسوط... فاستجار حسن المشناتي... فلمّا أطاعه رفع السوط... وفك عنه القيود ودهن له جراحاته وداواه، فقال حسن المشناتي خاب من عاداك يا سلطان الرجال، وألف طاعة لك وللسلطان الظاهر، فصافحه جمال الدين وطيّب خاطره... ثم إنه دخل على السجن... وخلص المأسورين... وتبعوه إلى أن وصل إلى باب البلد... وفتح الباب... ثم قال لحسن المشناتي، إذهب حالاً واخبر السلطان...» (١٧٤ ـ ١٧٧) وهنا يدخل

التمرد مرحلة جديدة، بارتماء حسن المشناتي في أحضان الأعداء ليسلطنوه على القلاع والحصون. ومع ذلك فإن شيحة يكتفي بتأديبه بالسوط حتى يقول له «ألف طاعة لك وللسلطان الظاهر» ويعيده إلى الصف الإسلامي.

وفي هذين التمردين، تمرُّد نسر بن عجبور وتمرُّد حسن المشناتي، نرى شيحة، بعد أن تغلب على منافسه بالدهاء وحسن الحيلة، يتعامل معه بأسلوب العصا والجزرة، ليروضه ويحمله على الطاعة والولاء، فيضربه الضرب المؤلم، وما إن تهن إرادته بتأثير الألم حتى يفتح له كوة الاستسلام الكريم، فيرتمي فيها.

لكن تمرداً آخر يحدث ويستوجب إعادة نظر في الموقف «الرسمي» من اختفاء معروف بن جمر وغيابه. ويتكشف هذا التمرد عندما يبلّغ نائب دمشق السلطان بنبأ اكتشاف عِمْلة مزيفة، مكتوب على أحد وجهيها «ضَرب هذه العملة السلطان عماد الدين علقم سلطان الدنيا والدين. . . سلطان القلاع والحصون وسائر بلاد المسلمين. .» (٢١١ ـ ٢١٢)

«والسلطان علقم هذا ابن أُخت معروف، أخبروه عن المقدم شيحة جمال الدين وأعماله وأوصافه، وأن الذي سلطنه الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام. . . فقال شيحة مقتول والظاهر معزول، وما أحد سلطان الأرض، بالطول والعرض، إلاّ عماد الدين بن فخر. .» (٢١٢) وبإعلان عماد الدين نفسه «سلطان الأرض» فقد وصل التحدي إلى بيبرس نفسه، وعرشه كسلطان على بلاد مصر والشام. وتنكَّر السلطان بزي تاجر كردي، واصطحب مرافقيه إبراهيم وسعد، وتوجه إلى قلعة صهيون، مقر عماد الدين. وذهب إبراهيم إلى عماد الدين وتحداه إلى المبارزة، «وخرجا إلى الفلاة واصطدما معاً، واشتد بينهما الخصام والقتال، وتضاربا بشجاعة نادرة. . . فبينما على هذا المنوال من الحرب والطعان، وإذ بفارس يصيح بهما ما هذا، قفا عن القتال، ودخل بينهما حاملاً الدبوس ومنعهما من متابعة القتال. فترجل إبراهيم عن فرسه، أمّا عماد الدين، قال لإبراهيم لولا هذا الكردي لأَريتك قيمتك بين الرجال، قال له إبراهيم تأدب يا عماد الدين أمام أمير المؤمنين، فخجل عماد الدين وترجل عن مهرته، وأعاد سيفه إلى قرابه، وتقدم من الملك وقبَّل يده، فترحب به الملك. . . ثم إن عماد الدين دعا السلطان إلى داخل القلعة، ليقوم بما يتوجب عليه من الضيافة والإكرام. . . إلى أن كان يوم الرابع من إقامة الملك عند عماد الدين، فقال له مرادي الذهاب إلى مصر الآن، وتكون برفقتي يا عماد لأني مهتم بالتفتيش عن خالك المقدم معروف، وإني رأيته في المنام يستجير، ويقول إليّ، يا أمير المؤمنين. . .» (٢١٣ ـ ٢١٤) وكان الملك قد اتخذ قراره بزيارة قلعة صهيون، في رحلة مسالمة ومؤالفة في إثر ذلك المنام. وكان قبل ذهابه قد درس الموضوع مع

أبي علي البطرلي، وقال له. . . «يوجد مدينة على جزيرة والبحر محتاط بها من ثلاث جهات، وهي عمار، وهكذا رأيتها في المنام، فقال أبو علي. . . أرجو أن تمهلني قليلاً لأحضر الخارطة. . . فغاب وعاد ومعه كتاب كبير فيه جميع ما حول البحر من بلاد. . . وقال يا مولانا أظن أن هذه هي البلد التي رأيتها في المنام واسمها مدينة القطلان، لأنها هي التي يحيط بها البحر من ثلاث جهات، قال الملك إذهب يا أبو علي إلى هذه المدينة واكشف لي عن أخبار أخيك المقدم معروف بن جمر هل هو مسجون في هذا البلد، حتى نسعى إن شاء الله في خلاصه. . .» (٢١٠ ـ ٢١١)

«ثم إن السلطان ركب وركبت الرجال، وأخذ معه عماد الدين، وسار إلى مصر. فلمّا وصل. . . إذ بأمير البحار أبو علي البطرلي. . . قال للسلطان، ذهبت كما أمرني مولاي. . . إلى أن وصلت إلى مدينة القطلان. . . ثم نزلت في المدينة. . . ورأيت البئر الذي وصفته لي في المنام، فقال له الملك. . . ما هذا البئر إلاّ علامة على مكان السجن الذي فيه المقدم معروف. ثم إن الملك أمر بإحضار سلطان الحصون شيحة جمال الدين. . . فقال الملك ما رأيك يا جمال الدين، قال سوف نرى يا أمير المؤمنين، ما يقتضيه الحال، وأشار للسلطان أن البحث في هذا الموضوع ينبغي أن يكون سراً. فأخذ الملك شيحة جمال الدين، ودخل به إلى قاعة الأسرار، ثم أرسل إلى الوزير شاهين، وأبو علي البطرلي أمير البحار، وإبراهيم وعماد الدين أن يحضروا بالحال. فلمّا حضروا، قال السلطان ما الرأي عندكم بخلاص المقدم معروف من الأَسر، قال سلطان الحصون شيحة، ها هو ابن اخته عماد الدين. . يسعى لخلاصه، قال الملك لماذا لا تتعاونا معاً، قال يا أمير المؤمنين إن عماد الدين لم يطعني، وهو ينافسني في سلطنة القلاع والحصون، فإذا كان لا بد، كل واحد منا يذهب بطريق لخلاص المقدم معروف، والذي يقدر على خلاصه يكون له السلطنة، فقال السلطان إن أمر القلاع والحصون هي في الأصل للمقدم معروف، فعند خلاصه نرى ما يكون، وإن جمال الدين وكيله إلى حين حضوره يستلم سلطنة القلاع، فالآن اذهبا معاً واسعيا في خلاصه من الأَسر. . . أمّا شيحة فقال لأمير البحار هيئ لنا مركباً كمراكب الإفرنج، وتكون النوتية متنكرين بألبستهم، وعلى صفاتهم. . . فهيأ أبو علي البطرلي مركباً. . . وأَعلم شيحة جمال الدين أنه تم كل شيء. . . ثم إنهم نزلوا في المركب وساروا مدة عشر أيام في البحار، إلى أن أقبلوا على القطلان، ورسوا على الميناء، فتنكر جمال الدين شيحة على صفة أهل البلد ونزل من المركب. . .» (٢١٦) وقام جمال الدين بمغامرات ومناورات ليتعرف على مكان وجود معروف، وقال لعماد الدين وأبي علي البطرلي

أن يلحقاه إلى أن وصلوا إلى معروف، فقال لهما خلِّصاه من الأغلال وأنا أحرس الباب... وفي هذه الأثناء خرجوا وتبعهم جمال الدين، إلى أن وصلوا إلى شاطئ الميناء، وجدوا الشختورة واقفة بانتظارهم، فركبوا وذهبوا إلى المركب...» (٢١٥ ـ ٢١٨)

«ثم إن جمال الدين شيحة قال لعماد الدين إرجع معي لأُريك فعل الرجال، وأنتقم لخالك معروف بالحال، وآخذ كنيار أسيراً...» (٢١٨) وكنيار هذا هو ملك القطلان الذي أسر معروف ووضعه في السجن، فدخل القصر في ليلة كان الغفراء فيها يحتفلون بأحد الأعياد، ويكثرون من شرب الخمر، منتهزاً فرصة سكرهم وقتل من قتل منهم «ثم دخل على كنيار، وجده نائماً من كثرة الشرب، وخرج به... ثم قال لعماد الدين إحمل كنيار واتبعني... فصعد شيحة على درج الأساطيح، وتبعه عماد، فوصلا إلى سطح يشرف على البحر.. فنزل عماد على الحبال إلى الأرض، فدلَّى له شيحة كنياراً وسار ولحقهم... إلى أن وصلوا إلى المركب ومعهم كنيار، ففردوا قلوعهم وسافروا على البحار... ثم قال جمال الدين لأبي علي البطرلي، وجِّه المركب على غير طريقنا الذي أتينا منه، لأن الأعداء سيلحقوننا...» (٢١٩)

وتنتهي مغامرة إنقاذ معروف من السجن وإعادته إلى الوطن، لتلتقي مجدداً بالمغامرة الغرامية التي خاضها معروف، فكانت المحرك للأحداث التي أدت إلى أسره وسجنه، إلى أن تمكن شيحة جمال الدين من إنقاذه.

واضح مما في القصة من تلميحات وإيحاءات أن شيحة هو صاحب فكرة إنقاذ معروف وإعادته إلى بلده، وهو الذي أحضر المعلومات التي تحولت إلى منام رآه الملك الظاهر بيبرس، وشاهد فيه جميع أوصاف المكان الذي سُجن معروف فيه، وجعله يأمر أبا علي البطرلي بالقيام برحلة استكشافية لدراسة الموقع والتأكد منه. وبعدما اكتملت المعلومات، سواء بواسطة منام الملك أو بواسطة رحلة أبي علي البطرلي، «أخذ الملك شيحة جمال الدين ودخل به إلى قاعة الأسرار» لوضع اللمسات الأخيرة على خطة الإنقاذ واستغلالها في صراع السلطنة على القلاع والحصون. وساهم في ذلك الوزير شاهين، وأبو علي البطرلي، وإبراهيم الحوراني، وعماد الدين. ونيطت المهمة التنفيذية بشيحة والبطرلي وعماد الدين. ولعل شيحة جمال الدين توصل إلى الاستنتاج بأن عودة معروف ستهدئ الوضع بين الإسماعيليين، فيتوقف مسلسل التمرد... وربما اعتقد أن معروفاً الذي سيكون مديناً له بإنقاذه، سيكون صديقاً وعوناً للملك ولشيحة. ولعل شيحة أيضاً هو صاحب الرأي بدعوة عماد الدين إلى المشاركة في العملية. فعماد الدين «لم يطعني وهو ينافسني في سلطنة القلاع والحصون، ولا بد كل واحد منا يذهب بطريق... والذي

يقدر على خلاصه، يكون له السلطنة. . .» وهو بذلك يحشر عماد الدين في موقع صعب وعسير. فإذا رفض المشاركة في رحلة الإنقاذ، يكون قد تكبد خسارة معنوية، بتخليه عن خاله، كما يكون قد كشف نفسه بأنه طامع في أن يأخذ مكان خاله لا أن يُرجعه إلى موقعه الشرعي، الذي يؤكده السلطان مجدداً بقوله «إن أمر سلطنة القلاع والحصون هي في الأصل للمقدم معروف. . .» (٢١٥ ـ ٢١٦) بحيث لا يكون لأحدهما حق أفضل من حق الآخر.

ثم إن شيحة حشر عماد الدين بإقدامه هو شخصياً على تنفيذ عملية إنقاذ معروف. فمسألة إنقاذ معروف تعتبر ضمناً من واجباته، بوصفه وكيلاً على السلطنة. فإذا ما قام بالعملية، فإنه يؤكد بذلك ما له من صلاحية، وما يتحلى به من كفاءة في ممارستها. وبما أن مصلحة شيحة تتطلب تجاهل هذا الواجب لأن المفروض أن عودة معروف تنهي سلطنة شيحة بالوكالة، فإن مبادرته إلى إعادة معروف تعطيه مكانة خاصة كرجل يمارس مسؤوليته من دون إعطاء مصلحته الشخصية أي اعتبار. ولا بد أيضاً من أنه أعد للأمر عدته، فقد تكون مسألة عودة معروف شيئاً، ومسألة استعادته للسلطنة شيئاً آخر.

وتستمر المباراة التي وضع شيحة تصميمها في أثناء العملية ذاتها، إذ يجد عماد الدين نفسه مجرد مساعد لشيحة، بالنظر إلى ما لشيحة من خبرة كبيرة بهذا النوع من العمليات، بينما اقتصرت خبرة عماد الدين على النزال في ساحة القتال. ويمارس شيحة، كما رأينا، أسلوباً «نفسانياً» يكيفه بحسب صفات الشخص الذي يتعامل معه؛ فمع فخر الدين، نراه يستثمر ما شاهده في فخر الدين من طيبة نفس واستعداد للجهاد، فينقذه من السجن من دون أن يتجمل عليه بشيء، ويُسلمه الملوك الثلاثة وجوان والبرتقش، ليأخذهم بنفسه إلى الملك الظاهر، فيكون بذلك قد أوفى بتعهده للملك، وأظهر قدرته على الفعل، من دون أن ينال الحق بالسلطنة، لأن صاحب الفضل الحقيقي في أسرهم هو شيحة. أمّا نسر بن عجبور وحسن المشناتي، فإنه يستعمل حيالهما أسلوب العصا والجزرة. إلاّ إنه يستعمل حيال عماد الدين أسلوباً آخر، هو أسلوب المباراة المحكمة. فلقد وضعه منذ البداية أمام خيار واحد، لو خسره لخسر المباراة كلها. ثم دخل معه في سباق خفيّ، فأخذه معه ليشاركه في عملية إنقاذ معروف، فأدخله تحت جناحه، من دون أن يُشعره بذلك. وبعد أن أتم شيحة إنقاذ معروف في عملية ثلاثية اشترك أبو علي البطرلي فيها، وبعد أن أوصلوا معروفاً إلى المركب، قال لعماد الدين «إرجع معي لأُريك فعل الرجال. . . وآخذ كنيار أسيراً.» فهنا مباراة فرعية، لا تُشكل جانباً من عملية الإنقاذ ذاتها، التي كانت قد انتهت، ولا يصاحب شيحة فيها سوى عماد الدين، والقصد

منها أن يريه فعل الرجال. وتمضي المغامرة بسرعة فائقة ونجاح باهر، «ثم ذهب، وأتى بعماد الدين، ومرّا على غرفة الغفراء، فنظر عماد الدين المذبوحين في الغرفة، فتعجب من قدرة شيحة الفائقة وجرأته النادرة...» (٢١٩)

ونتيجة النجاح الفائق الذي حققته مغامرة إنقاذ معروف، تأخذ الرواية مساراً جديداً، يقع قسم من أحداثه لدى الصليبيين، ويقع القسم الآخر لدى الجانب الإسلامي، ثم يلتقي هذان القسمان في روعة روائية قل مثيلها في الأدب كله.

«ففي مدينة قطلان، اجتمع وزراء كنيار، وتذاكروا... فأجمعوا رأيهم على أن يسيِّروا وفداً منهم إلى الملك مغلوين... فلمّا سمع مقالهم أرغى وأزبد وتكبر وتجبر، وقال لا بد من أن أغزو بلاد المسلمين... أمّا جوان والبرتقش... سمعا بهذه الحملة، ففرح جوان وتوجه طالباً الملك مغلوين ومعه البرتقش، فلمّا وصلا إليه، ودخلا عليه، استقبلهما بأحسن استقبال، ثم أجلسهما بجانبه... فحكى... ما جرى في القطلان، وقال لجوان... جاء إليّ أهل القطلان... فقمت أنا بناصرهم، وخبّرت الأقران الذين لي سيطرة عليهم بأن يبعثوا فرسانهم، ولبّست ولدي عرنوساً قائداً على هذا الجيش، والآن ولدي عرنوس خارج المدينة وناصب الخيام.. فقال جوان قُمْ... لنرى الجيش ونشجع قائده، وذهب جوان ليراه بالعيان، وعندما وصل أخبروا عرنوساً بمجيء جوان، فقال عرنوس، ولأي شيء يأتي لعندي... فلمّا دخل جوان لم يقم له عرنوس ولا اعتبره... وقال له ما تريد يا ديان هل لك حاجة عندي، قال جوان جئت لأُشجعك على غزو الأعداء، وأُحذرك من حيلهم، فقال عرنوس لا لزوم لذلك... فلا تكلف نفسك الحضور إلى هنا، فنهض جوان ومعه غلامه، وصارت ترتجف ذقنه مما اعتراه من عرنوس، فقال له البرتقش بخورك ما قطع مع عرنوس... وإنه ما تشربك ولا نزلت له على معدة، وأنا أقول لك يا جوان إنه عاقل ومصيب، لأنك ما تدخل بين اثنين إلاّ وتفرّقهم... إني أستبعد أن يكون عرنوس ابن الملك مغلوين، فهذا الطين ليس من هذا العجين... فكيف يكون ذلك الثعلب أباً لهذا الأسد... فمغلوين أصغر رقيق وقصير، أمّا عرنوس فهو طويل القامة جميل الطلعة والصورة، وله شامة على كرسي خده قدر قرص العنبر، عريض المنكبين، واسع الصدر، قوي الزند، سريع الحركة، وهو كأنه النمر، وله سطوة تقطع الظهر... قال له جوان إنهض معي لأرى وأتدبر. وعاد جوان مع البرتقش إلى ديوان الملك مغلوين... قال كل شيء على غاية ما يرام إلاّ القائد عرنوس فهو متكبر متجبر، قال مغلوين هذا ابني، قال جوان معاذ الله أن يُنسب إليك، فقال مغلوين الحقيقة... إنه ليس لي أولاد، ولكني ذهبت يوماً إلى القطلان لعند كنيار فوجدت عنده هذا الغلام... فقلت له من أين لك هذا الغلام، قال وجدته في

جزيرة العرانيس في جرن الدير المهجور... قلت أعطني هذا الغلام، وأنا أُعفيك هذا العام من الخراج... قال جوان... هو أهانني وطردني كأني حيوان أجرب، فلمّا سمع... مغلوين.. هذا الكلام تأثر وبعث إلى عرنوس... وقال له يا ولدي لماذا طردت جواناً ولم تحترمه، قال أنا لست بحاجة إليه يا أبي... فقال له... أُريد منك أن تحترمه وتعمل برأيه ومشورته لأنه يعرف كثيراً عن البلاد التي أنت قاصدها..» (٢٢٠ ـ ٢٢٢)

«وأمّا ما كان من شيحة ومعروف وأبو علي البطرلي.. خرج عليهم ريح عاصف، وهاجت البحار... ولمّا هدأ البحر وجدوا أنفسهم قريباً من خليج مسيسبي وجبل النار، فسار أبو علي بالمركب نحو الميناء وأرخى المراسي... فوجدوا في بلدة حمامات معدنية وماؤها ساخن.. ثم أقلعوا في البحار ووجْهتهم الإسكندرية... واستقبلهم نائب الإسكندرية، وهنأهم بالسلامة... وبعدها ساروا طالبين مصر... ثم توجهوا إلى الديوان، فنهض الملك واستقبلهم أحسن استقبال، وعانق المقدم معروف، وسلّم على جمال الدين وسلّم على أمير البحار، وعلى عماد الدين، ثم أمر لهم بالجلوس، وأجلس معروف بجانبه... صار جمال الدين شيحة يحكي للملك ما جرى معهم... وقد أسرنا ملك القطلان كنيار، فقال الملك أحضروه لأراه، فلمّا أحضروه بين يديه، قال له لماذا سجنت عندك المقدم معروف... يا ظالم، يا عديم المروءة والوجدان والضمير، فقال كنيار ولد عزيز عليّ، عمره ثلاث سنوات، وجدته في جزيرة العرانيس في جرن الدير المهجور، فجاء المقدم معروف وصار يكرمه، ويقول له أنت ولدي، فأعلمني مربي الغلام بهذا الأمر، فخفت أن يأخذ عرنوساً مني وهو العزيز عليّ، فحبسته لهذا السبب. فلمّا سمع معروف من كنيار أين وجد هذا الغلام، قال هذا ولدي ورب الكعبة... فقال الملك لكنيار، والآن أين الغلام، قال كنيار.. عند الملك مغلوين... فيوم من الأيام مر بمراكبه على القطلان... فرأى الغلام... فقال لي إن قلبي أحب هذا الغلام، وأنا ليس لي أولاد، فاعطني إياه لأجعله ولدي، وأخلفه على مُلكي، وإنك معفى هذا العام من الخراج، فأعطيته إياه، فأخذه إلى بلاده ورباه وجعله ابنه... وولي عهده، وصار عمره ما ينوف عن العشرين عاماً...» (٢٢٤)

هكذا تلتقي الرواية عند عرنوس الذي يصبح منذ الآن المحور الذي تدور حوله أحداثها ومعانيها ورموزها الكبرى. وتسير في بطء وتأرجح في بادئ الأمر، ثم تتدفق كشلال جارف، نحو عمق مأساوي لا مثيل له في الأدب كله.

ولقد تركناه وهو قائم بترتيب الفرسان وتنظيم الجيش. «ثم إنه أمر جيوشه بالمسير، إلى أن ظهرت له مآذن حلب وأسوارها... فلمّا رأى عرنوس... أن

البلد استعدَّت للقتال، كتب كتاباً وأعطاه إلى نجاب... وسار... إلى نائب حلب... فقرأ الكتاب وإذ به... إعلم أني قاصد حرب السلطان، فإن انتصرت عليه، تبقى أنت على ما أنت عليه، وإن أسرني وغلبني أكن تحت حكمه، فالرأي عندي أن تفتح البلد، وتدع الناس تبيع وتشتري على عساكري... فكتب نائب حلب... قائلاً هذا المكر والاحتيال لا يمشي على مثلي...» (٢٢٥)

أمّا الملك الظاهر فإنه «أمر... بجمع الجنود والعساكر وأمر بالنفير العام لكل من يقدر يركب الخيل ويحمل السلاح...» (٢٢٥) وأمّا معروف فإنه «لمّا سمع... بذكر عرنوس، قال هذا ولدي يا رجال فانهضوا... لجمع الرجال من كل حدب وصوب... وسار... إلى أن وصل، فرأى السلطان وعساكره فترجل... فترحب السلطان وأجلسه بجانبه، فقال المقدم معروف... إن عرنوساً قائد هذا الجيش هو ولدي، فقال السلطان نرجو الله أن يهديه على يديك فيساعدنا على أعدائنا... ثم إن الملك كتب كتاباً وأرسله مع إبراهيم للملك عرنوس... فوجد عرنوساً جالساً وجواناً بجانبه... فأعطاه الكتاب وإذ فيه.. الواجب عليك يا ولدي أن تعرف أصلك لتكون على بينة من أمرك، فأبوك المقدم معروف بن جمر، سلطان القلاع والحصون، صاحب الأصل الأثيل، فاترك الآن أعداءك وأعداءنا، واحضر إلى عندي...» (٢٢٦) «قال له جوان هذا كله خوف منك لئلا تملك البلاد، فاكتب له بالجواب بالحرب...» (٢٢٧)

وتدور المبارزات، فنزل حسن المشناتي، «وما دام يقتل ويجندل من اللئام، إلى أن قتل منهم ثلاثين، فوقفت عنه فرسان الأعداء... وثاني يوم نزل حسن النسر بن عجبور، وفعل أفعالاً تعجز عنها صناديد الرجال... قال إبراهيم أُريد من مولانا السلطان أن يسمح لي غداً بالنزول، لأني تشوقت للقتال، قال له الملك مقامك محفوظ عندي يا إبراهيم لمقاتلة الأبطال والمعارك الكبرى، فسكت إبراهيم.

«ضجت الإفرنج وشكوا إلى الملك عرنوس... وفي الصباح أعلم الملوك أنه يريد النزول إلى الميدان، فنزل... وهو راكب جواد، متقلد بسلاحه، ومصفح بالحديد... فبرز له أيدمر البهلوان، فتضاربا وتقاتلا، وتباعدا وتقاربا قدر ساعة، حتى تعب أيدمر فانقض عليه عرنوس واقتلعه من سرجه، وأخذه أسيراً...» (٢٢٧ ـ ٢٢٨) وتعاقب على مبارزته الأبطال، الأمير علاء الدين، والأمير سنقر، والأمير بشتك، والجاولي وهو يأسرهم ثم نزل المقدم بن عجبور، فقذفه بحربة ماضية أصابت فخده، وعاد النسر وهو مكسوف.

«فلمّا رأى معروف فعال ابنه عرنوس سُرّ وابتهج... ولمّا علم السلطان أفعال عرنوس غضب غضباً شديداً، وقال لإبراهيم جاء دورك، فانزل غداً لعرنوس وائتني

به ذليلاً مهاناً... وثاني يوم... برز عرنوس إلى الميدان وطلب الفرسان للمبارزة، فتأهب للنزال، وأراد أن يركب فرسه، وإذ بالمقدم معروف أتى إليه وقال... مرادك تنزل لولدي عرنوس وتكسر نفسه... قال إبراهيم أمرني الملك، قال لو أمرك ضيعها، لأني أخاف عليه منك، لأنه لم يزل طري العود... قال كيف نعمل... قال المقدم معروف أنا أنزل إليه، وأنت واجه السلطان ودبرها، قال إبراهيم تفضل انزل وحسبي الله...

«ثم إن معروفاً عندما نزل ولده عرنوس إلى الميدان برز إليه، فقال له عرنوس من أنت أيها الشيخ، فقال أنا معروف، أبو عرنوس الواقف أمامي لقتالي، إسمع يا ولدي، أنا أبوك، وأُمك مريم بنت ملك جنوا، والآن هي موجودة عند والدها، وقاعدة حزينة مقهورة لأجل فراقك... فأنا عندما رأيتك تفوقت على الفرسان فرحت بك وسُررت، والآن قاتلني لأرى ما تعرفه من أبواب الحرب والطعان. ثم إن عرنوساً صار يقاتل أباه وأبوه يبطلها، ويعلّمه الذي لا يعرفه من فنون الحرب، إلى أن زال النهار ورجع معروف من الميدان.

«أمّا إبراهيم فسار إلى السلطان، فقال له الملك أين عرنوس يا إبراهيم، قال... إن شاء الله غداً آتيك به أسيراً، فاطمأن الملك. إلى ثاني يوم أراد إبراهيم أن ينزل إلى الميدان عندما برز عرنوس، وإذ بالمقدم معروف أقبل وقال لإبراهيم أرجوك أن تسمح لي أن أنزل إلى ابني فسمح له...

«ودام هذا الحال ثلاثة أيام، فغضب السلطان، وقال غداً أنا أبرز إلى الميدان، فخاف معروف على ولده من السلطان، فكتب كتاباً إلى عرنوس، وقال له خذ حذرك، فإن السلطان غداً سيبرز لك ويأسرك، فاربط وسطك بالسلاسل إلى السرج... فلمّا وصل مكتوب معروف.. أتى بسلسلة من حديد ولفها على خصره... وثبتها في السرج، حتى صار هو والسرج قطعة واحدة. وثاني يوم برز إلى الميدان، وقال لا يبرز لي إلاّ السلطان، فأَعلموا الملك أن عرنوساً برز إلى الميدان، وقال لا يبرز له إلاّ أنت يا مولانا، فتعجب السلطان، وقال كيف صار عنده خبر مرادي أبارزه، فنهض السلطان الظاهر... وقدموا له الجواد الأدهم، فركب وانحدر إلى الميدان وصار يتقاتل مع عرنوس مدة ساعة من الزمان، إلى أن رفع الملك الدبوس وضربه به... فتلقى عرنوس الضربة بالترس فثَنت يده إلى كتفه، شعر أن كتفه انخلع من قوة الضربة. أمّا عرنوس فضرب السلطان بالسيف على رأسه فتلقى الظاهر الضربة بالدبوس فانكسر السيف، وما بقيت بيد عرنوس إلاّ قطعة من السيف، فعند ذلك انقض عليه السلطان وقبضه من خصره وأراد أن يقتلعه من بحر سرجه، وإذ هو والسرج قطعة واحدة، فعرف السلطان أنه مثبت نفسه بالسرج، عند

ذلك قوى عزمه وشده بساعده وقلعه هو والسرج من ظهر جواده، وغار به وهو رافعه بيده إلى أن وصل به إلى باب الصيوان، ورماه في الأرض، وقال ضعوه على نطع الدم، فإذا لم يطع أباه ويُسلم اقتلوه.

«أمّا عرنوس فإنه صحا من غشيته، فرأى نفسه في محل الإعدام والسياف ينتظر أمر السلطان بقطع رأسه، فغمض عينيه ونام... رأى جده الإمام علي أمير المؤمنين، يقول له إعلم أن أباك معروفاً من أولادنا، وأنت ابنه فأسلم... فأسرع إبراهيم إلى معروف، وقال أريد منك البشارة إن ولدك عرنوس أسلم في هذه الساعة... فلمّا سمع أبوه المقدم معروف كان أفرح الناس بولده... وصار يقبِّله، ثم أخذه لبين أيادي السلطان... فنهض الملك واستقبله وصافحه، وقال له... أطلب ما تريد... وقال عرنوس أُريد... أن أسير إلى الجيش الذي معي أعرض عليه الإسلام فمن أسلم قبلناه، ومن أبى رحلناه إلى بلاده، ومن طغى وتجبر وأراد القتال قاتلناه... فركب عرنوس جواده، ورجع إلى الجيش... فلمّا وصل دخل صيوانه وجلس، فجلس معه أولاد ملوك البرتغال، قال له جوان الحمد لله على السلامة يا ملك، قال عرنوس مرادي أن تذهبوا معي إلى عند السلطان... فاستقبلهم السلطان بالترحاب وأجلسهم، فقال عرنوس لجوان من هو أبي، قال جوان أبوك المقدم معروف... وأُمك مريم بنت ملك جنوا، وحكى جوان للعرنوس على أخذ مريم إلى القدس وإسلامها وجوازها من المقدم معروف، وسرقتها من عند والده وهي حامل، وقد ولدتك في دير العرانيس... ثم قال لجوان.. هل لك أن تُسْلِم، فقال جوان أهذا الأمر المهم الذي دعوتنا إليه... لا أريد، قال له إذهب إلى حال سبيلك، ولكن إياك أن تدخل الجيش... ثم التفت إلى أولاد ملوك البرتغال، فأسلم كلهم وقالوا نحن نعرض الإسلام على أتباعنا، فمن أسلم قبلناه... ثم قالوا لمن أبى الإسلام إرحل إلى بلادك بسلام...» (٢٢٨ ـ ٢٣١)

«أمّا معروف طلب من السلطان الإذن بأن يأخذ ولده عرنوس إلى جنوا إلى عند أمه.. ودخلا ديوان الملك، فلمّا رآهما استقبلهما وأمر لهما بالجلوس، فقال له معروف أما عرفتني، قال نعم عرفتك، أنت صهري المقدم معروف، ولكن هذا الشاب لم أعرفه... قال هذا الملك عرنوس ابن بنتك مريم، ففرح بهما وزُينت جنوا لقدومهما، ثم إن معروفاً سأل الملك أين زوجتي مريم، قال إن زوجتك حاضرة، ولكنها في قاعة الأحزان... فبعث الملك خادماً أعلمها بقدوم ابنها عرنوس وزوجها المقدم معروف... ثم قامت تجري وهي فرحانة باللقاء، ورأت ابنها عرنوساً... فهجمت عليه وعانقته، وغابت عن الوجود من شدة فرحها واشتياقها إليه، فحملها ابنها عرنوس، وأدخلها القاعة وأجلسها على تختها، وأتوا لها

بالمنعشات والمنبهات... وصارت تقدم لولدها من كل شيء أحسنه...

«أمّا معروف فقال لابنه وامرأته هيا لنرجع إلى الأوطان... فعرضوا على الملك هذا الشأن، فقال شأنكم وما تريدون، فحزمت الملكة أمتعتها وأنزلتهم في المركب... وساروا طالبين ميناء اللاذقية، إلى أن وصلوا وطلعوا من البحر، وتوجهوا طالبين حصن صهيون... أمّا الملكة وعرنوس طلبا الإذن بالذهاب إلى مصر من معروف، قال لهما وأنا ذاهب إلى مصر معكما... وفي الصباح طلع الملك عرنوس إلى الديوان فاستقبله السلطان أحسن استقبال، وأجلسه قريباً منه... وقال له أنت ملك من تحت أمير المؤمنين، وأولاد الملوك الذين معكِ كل واحد منهم أمير، وأنت قائدهم وملكهم، ولك كرسي في الديوان بين كبار الوزراء ومن أهل المشورة في الأحكام..» (٢٣١ ـ ٢٣٣)

لقد ظهرت الآن بشائر عهد واعد. فإن عرنوس يمثل جيلاً جديداً من الناس، نشأ في أوضاع مختلفة؛ فهو ثمرة حب بين فارس مسلم وأميرة إيطالية، رعاه مولانا شيخ الإسلام النووي، وجعله زواجاً مباركاً، وكتب به حجة شرعية، وأجازه ـ ولو على مضض ـ ملك جنوا، والد الأميرة. لكن الكره الصليبي لم يجز هذا الزواج، ففرق الزوجين، وولد عرنوس في ظل هذا الفراق، ليعيش في العالم الصليبي، ويهيأ لقتال المسلمين. لكنه مع ذلك يزدري جوان... «فلما دخل جوان لم يقم له عرنوس ولا اعتبره...» (٢٢١) ويشكوه جوان إلى الملك مغلوين ـ أبيه المفترض ـ قائلاً «أنت تعزني وتكرمني، وهو أهانني وطردني كأني حيوان أجرب...» (٢٢٢) وعندما يأسر الملك الظاهر عرنوساً، ويُجبره على طاعة أبيه والدخول في الإسلام، ويعود عرنوس إلى جيشه ليبلغهم بما حدث، يقول لجوان «إذهب إلى حال سبيلك، ولكن إياك أن تدخل الجيش، فما تعرف ما يجري لك..» (٢٣١) فالروح التي تجسدها عرنوس، حتى قبل أن يعرف نسبه الإسلامي، هي روح رافضة لجوان وما يمثله من الكره والأذى. هي روح المصالحة، فمن شاء أن يدخل الإسلام فليدخل، ومن شاء أن يرحل فليرحل، ومن شاء أن يبقى سيبقى معززاً مكرماً. ويتلمس عرنوس جواً عائلياً افتقده، فينضم إلى أبيه، ويذهب معه للقاء أمه في جنوا، وعندما يقول معروف لابنه وامرأته «هيا بنا لنرجع إلى الأوطان، وقالا له كما تريد..» يقول لهم ملك جنوا «شأنكم وما تريدون.» ويرمز هذا الجو الذي يُخيم الحب عليه إلى أن الحرب قد انتقلت إلى مرحلة تفاهم وتقارب.

ويصبح عرنوس قائداً مخلصاً في خدمة الملك الظاهر. وتتعرض بورصة لهجوم صليبي تتزعمه شمقرين ملكة مدينة الرخام.. «قال الملك عرنوس.. أرجو أن تُرسلني أنا وعساكري إلى الأمير مسعود حاكم بورصة لأفتح مدينة شمقرين

وأجعلها مدينتي ومحل إقامتي أنا وعساكري، فقال الملك لك ذلك... أمّا الوزير شاهين، فقال أيأمرني أمير المؤمنين أن أذهب أنا وعساكري مع الملك عرنوس... لأني من أهل تلك البلاد... فقال السلطان لا مانع من ذهابك مع عرنوس بهذه الغزوة...» (٢٣٤) هل كان الوزير شاهين يشك ويشكك في إخلاص عرنوس. ربما، يعزز ذلك أن «الملك الظاهر بعد ما سار جيش عرنوس... بعث طلب جمال الدين شيحة، فحالاً حضر، فأعطاه الملك المكاتبة... وإرساله عرنوس والوزير شاهين... قال يا مولانا ليس لي خبر بشيء من هذا لأني كنت غائباً عن مصر واليوم وصلت، قال الملك مرادي أن تلحق بهم وتساعدهم... قال جمال الدين، لا تكون لك فكرة يا أمير المؤمنين، إن شاء الله عن قريب أكون معهم وأُساعدهم...» (٢٣٤ ـ ٢٣٥) ويتضح لنا سبب الخوف الذي راود شاهين والسلطان ومن ثم شيحة. ذلك بأنه عندما فتح عرنوس مدينة الرخام، «صار يستقبل الرجال والأبطال... وإذا بشخص من بني إسماعيل... قال الذي أُعلمك به أننا من الذين أبوا أن يطيعوا شيحة جمال الدين إلاّ سلطانهم الأصلي المقدم معروف بن جمر والدكم، والآن المقدم معروف تنصل من السلطنة علينا وأعطاها لشيحة، فالبعض من بني إسماعيل أبوا أن يطيعوه، والآن ظهر خلفه وهم ابن سيدنا وسلطاننا الملك عرنوس ومرادهم أن يطيعوك، ويكونوا من رجالك... خير لهم من التشرد والعصيان...

«... فقال الملك عرنوس لأعرض هذا الأمر على جمال الدين سلطان القلاع والحصون وأرى رأيه، فحالاً أرسل إليه بالحضور... ثم إنه عرض عليه هذا الأمر، فقال له شيحة لا بأس ولا ضرر، وهذا مما يسرني، وإذا أراد الملك عرنوس أن أكون في خدمته فعلت، فشكره الملك عرنوس...» (٢٣٨) ومن الواضح أن معروف ظل سلطان القلاع والحصون بعد عودته. فالسلطان يقول لعرنوس في كتابه إليه قبل مشهد المبارزة «فأبوك المقدم معروف بن جمر سلطان القلاع والحصون.» لكن موقف معروف في ذلك اليوم لا بدّ من أنه استوجب إجراء من الملك أدى إلى «تنصل» معروف من السلطنة أو تنازله عنها. ولئن أعطت هذه الخطوة لسلطنة شيحة كامل الشرعية، فإنها أعادت فتح ملف السلطنة، نظراً إلى أن شيحة ليس من الجبل بل من عرب خان يونس، ولأنه ليس من الإسماعيلية.

وعاد تمرد الإسماعيلية من جديد، فثار منصور العقاب «وهو صاحب الكهف والقدموس، جبار من الجبابرة العظام، وكان من المفتشين عن المقدم معروف، فلمّا أتى إلى قلعته... سأل عن المقدم معروف ظهر أم لا، وعن السلطنة، فقالوا له أمّا المقدم معروف فقد ظهر؛ وظهر له ولد يقال له عرنوس، وأمّا السلطنة... فتنازل

المقدم معروف عنها لشيحة جمال الدين... وخاف السلطان من وقوع الفتن، وتزيّا بزي كردي... إلى أن وصل إلى سهل النواعير... فرأى خيالاً مقبلاً عليه، فلمّا قاربه قال الملك بنفسه، أظن أن هذا منصور العقاب العاصي، والله لأعمل جهدي وآسره وأُريح الناس منه. أمّا هذا الخيال فكان منصور العقاب بنفسه... فقال إلى أين يا آغا ساير وحدك، أما تخاف عدواً يأخذ منك هذا الجواد، فقال الملك خفت على الجواد وما خفت على هذا الخرج الملآن ذهباً... وصار يدنو منه بالجواد لعله يستحكمه بضربة بالدبوس الدمشقي ويرميه عن ظهر جواده. أمّا منصور فكان حذراً منه... ثم تقاتلا فسدد الملك الظاهر ضربة سيف لمنصور، فأراد منصور أن يردها بالترس، فسقط السيف على رقبة فرسه فقطعها... وارتمى على الأرض، وصار يقاتل السلطان فخاف الملك على الجواد من ضربات منصور، فنزل عنه... أمّا منصور، قفز من الأرض إلى جواد الملك وسار بسرعة، وترك الملك يمشي.

«أمّا إبراهيم استفقد الملك فما وجده... فركب فرسه وأخذ معه سعداً، وفي أثناء سيرهما رأيا خيالاً... قال إبراهيم أظن أن هذا منصور متقاتل مع الملك وآخذ جواده، فحالاً... تعرض لمنصور العقاب، فالتفت منصور... وجد تحته فرساً من أطايب الخيل، فطمع بأخذ الفرس... ووقع بينهما القتال فصار منصور يوجه ضرباته إلى فرس إبراهيم، فخاف عليها ونزل عن ظهرها... والثاني نزل عن الجواد، وصارا يتقاتلان بدون خيل، ففي أثناء قتالهما هجم الحصان على فرس إبراهيم فجاء سعد وأبعده، فقفز منصور على الفرس وصار بظهرها، وأسرع بالهرب، فلمّا صار بالفلا... قال من أين هذا الخيل عند الدروز* والأكراد، والله تغيرت الدنيا وانقلب الزمان في غيبتي.

«أمّا إبراهيم فركب جواد الملك وسار مع سعد، وإذ بالملك وهو ماش على رجليه... وساروا. وسار منصور العقاب يستنجد بباقي ملوك السواحل. في أثناء مسيرته واجه رجلاً محملاً برميلين على بغلة، فقال له ما معك يا معلم، قال هذا خمر يا سيدي... كل سنة أعمله وأنزل أبيعه في المدينة، فقال اسقني جرعة... فناوله زقاية خمر، فأخذه منصور وصار يشرب... فما سارا غير قليل إلاّ منصور راكباً على قربوس السرج... فربطه من يديه ورجليه من تحت بطن الفرس، وربط الفرس بالبغلة... وما عمل هذا العمل إلاّ جمال الدين شيحة... أمّا الملك وإبراهيم وسعد... وصلوا إلى جيش الفداوية... ثم إن السلطان جلس في الصيوان... وبعد قليل أتى جمال الدين سلطان الرجال، ومعه منصور العقاب

* المرة الوحيدة التي يرد فيها ذكر للدروز في سيرة الملك الظاهر.

محمل على فرس إبراهيم... ثم أنزلوا منصور العقاب عن الفرس ووضعوا القيود في يديه ورجليه... فقال الملك ما رأيكم يا بني إسماعيل برجل أظهر العصيان واستباح أموال رجاله، وطلب المعونة من الأعداء، ليحارب أمير المؤمنين... وأبناء عمومه... فما جزاؤه، قالوا القتل... فصاح بأعلى صوته الجيرة يا بني إسماعيل، فما ردّوا عليه بل أطرقوا رؤوسهم إلى الأرض... فلمّا يئس منهم قال أنا في جيرتك يا أمير المؤمنين... فقال له الملك عفوت عنك على شرط تقدم الطاعة إلى جمال الدين شيحة سلطان القلاع والحصون، فقال ألف طاعة لمولانا... وسلطان الحصون جمال الدين...» (٢٤٠ ـ ٢٤٤)

«أمّا عرنوس فقد استقر في مدينة الرخام هو وعساكره بعد أن تم له فتحها بإذن من السلطان. لكنه عندما سمع بخبر تسمم الملك قال لوالده مرادي أن نذهب إلى مصر لنزور الملك، ونحقق في مسألة التسمم... ثم استأذن من السلطان، وذهب إلى السرايا... سأل من المسؤول في قصر السلطان... فترحب به عرنوس، وقال له أريد منك أن تأمر الخدم الموجودين في قصر الملك أن يمروا من قدامي، وأجلس أنا وأنت إزاء بعضنا، وكلما مرّ أحد منهم تنبئني عنه وعن عمله في القصر، قال له أمرك... وصار كل ما مرّ أحد منهم يسأله عرنوس من هذا، فينبئه عنه من أين هو، وما مصلحته في القصر، وكيف إخلاصه، إلى أن مرّت مرينة... فعندما وصلت أمام الملك عرنوس صارت ترتجف، وكادت أن تقع من عظم ما نابها من سطوة عرنوس، فسأله من هذه، قال هذه دخلت إلى السرايا بأمر السلطان، وبعد إقامتها شهراً من الزمان، قالوا إنها أسلمت، وأعطاها أمير المؤمنين تمنيتها، وهي أن تكون مرتبة مائدة السلطان... ثم إن عرنوساً أتم التحقيق عن باقي الخدم بصورة سطحية، وأخذ مرينة إلى غرفة من غرف القصر، وصار يسألها كيف أسلمت، وما مرادها من إسلامها، قالت له إني رأيت في منامي رجلاً مرتدياً ملابس خضراء، وعلى رأسه طاقية خوص، وقال أسلمي يا مرينة خير لك، قلت له من أنت، قال أنا الصالح أيوب، فانتبهتُ من نومي وأنا أنطق الشهادتين. فعندما سمع منها عرنوس هذا الكلام عرف أنها متعلمة هذا الكلام تعلماً، قال لها ومن علّمك هذا الكلام فإنه ولا شك هو الذي أعطاك السم ودربك هذا التدريب... (كان جوان قد لقّنها القصة، وهي ما يُسمى في فن المخابرات قصة التغطية) فصارت ترتجف وتتوسل إليه لأنها ستعترف له بكل شيء... فلمّا سمع عرنوس اعترافها بعث إلى السلطان أنه عرف الغريم، وقال له اقبض على مرين بالحال، وأرسله لي لإتمام التحقيق... وقبض على مرين وأرسله... فقال له إسمع ما تقول زوجتك وقال عرنوس لمرينة إحكي ما فعلت بالذات، فقالت لزوجها أنت أتيت بجوان إلى بيتي، فأعطاني

السم... قال له عرنوس وكنت السبب في دخولها إلى الحريم بأمر الملك... فسكت مرين... فقال عرنوس، وأنت يا مرين ما حملك على أن تتنكر للسلطان وتتلاعب بالأديان، قال كنا مخطئين أنا وزوجتي، ولكن الذي حرضنا على هذا الفعل الخطير هو جوان...» (٢٥٢ ـ ٢٥٤)

وهكذا نرى عرنوساً في خضم الأحداث والمؤامرات يراعي جانب الحذر، ويستخدم معرفته الوثيقة بالجانب الصليبي، لمصلحة السلطان والمسلمين، سواء في أمور الحرب، أم في مشكلات الحياة. وآثر الابتعاد عن العاصمة، مركز الأحداث، إلى مدينة الرخام، مقيماً فيها وعساكره، بحسب سماح السلطان له.

«أمّا الملك عرنوس فصار يبني المراكب الكبار، ويغزو بلاد الإفرنج، ويأتي بالأسارى والأموال حتى ضجت الإفرنج منه، واشتكوا عليه للملك باش قران صاحب رومة المدائن، وطلبوا أن يتوسط عند السلطان لإطلاق أسراهم... فكتب باش قران إلى السلطان الظاهر وقرأ (السلطان) الكتاب، وإذ به... الذي نعلمكم به أن نائبكم عرنوس صاحب مدينة الرخام قد تعدى على ملوك الإفرنج، وهو يغزوهم ويقتل رجالهم... فأتوا يشكون إليّ... ويطلبون فك أسراهم، فالرجاء أن تمنعوه عن هذه الأعمال، وأن تطلقوا سراح الأسرى... فلمّا قرأ السلطان... أمر كاتب الديوان أن يكتب كتاباً إلى الملك عرنوس ويطلب منه الحضور إلى مصر لأجل المذاكرة في هذا الشأن... فلمّا قرأه (عرنوس) ركب وسار إلى مصر، فترحب به السلطان وأمر له بالجلوس، ثم قال له إن باش قران أرسل لنا مكتوباً يقول فيه عندك أسارى من الإفرنج... فقال عرنوس أين وزير باش قران، فأمر السلطان بإحضاره فحضر، فقال له عرنوس أنتم أرسلتم تطلبون أسراكم، فلماذا لم تذكروا أسرانا، والقتلى الذين قتلتموهم ظلماً وعدواناً، فكان الواجب على باش قران أن يفاوض على هؤلاء أولاً، ولْيعلم أن الذين اشتكوا إليه عن أفعالي أنهم هم المعتدون... فقال وزير باش قران مليكي قادر أن يخلص الأسرى منك بالقوة، ويخرب مدينة الرخام، ولكنه بعث رسالة يفاوض فيها الملك الظاهر بهذا الخصوص، ولم يرسلها إليه ليفاوضك أنت، فما أتم كلامه إلاّ وسيف عرنوس رمى عنقه، فوقع رأسه في حضن أيدمر البهلوان وتلطخ وجهه وصدره بالدماء، فنهض بالحال وثيابه ملوثة بالدماء، وقال له ما هذه الفعال، إن الرسول لا يُقتل، ولكنك لا تلام لأن حليبك رديء. فقال عرنوس أنا ابن معروف، والذين تربيت عندهم ملوك، أمّا أنت فليس لك أصل يُعرف لأنك رقيق تباع وتشترى. فاغتاظ منه أيدمر، وتقدم إلى عرنوس وأراد أن يمسك بخناقه، متكامشاً بالأيدي، فخاف عليهما الملك، فتقدم وفي يده قضيب خيزران، فضرب أيدمر فزاغ عن الضربة، فأصابت رأس

عرنوس، فرفع السلطان يده وأراد أن يضرب أيدمر كما ضرب عرنوس، فزاغ عنها ووقعت على عرنوس، فظن عرنوس أن الملك الظاهر يضربه عمداً، فقال له أيها الملك يا من اسمك العادل، كان من الواجب عليك أن تضرب أيدمر الذي أهانني بكلامه البذيء، لا أن تضربني وحدي، ولكن سوف ترى نتيجة أعمالك. ثم إنه نزل من الديوان غضبان، وركب جواده، وخرج من القلعة، فاعترض طريقه رجل، وقال السلام عليك يا ملك عرنوس، أرأيت تقلبات الزمان، الذي أصله مملوك يهين الملوك... إعلم أني أنا جوان، وكل الذي جرى في الديوان رأيته بعيني، ولو كنت تطيعني لجعلت ملوك الإفرنج تحت يدك وطوع أمرك، ولكنت تنتقم من بيبرس أفظع انتقام، فقال له من أي ملك أطلب المساعدة، فقال له من الملك باش قران، فقال عرنوس إن باش قران ناقم عليّ بسبب الأسارى... وإني قتلت وزيره، قال جوان أمّا الأسارى فاطلق سراحهم، وأمّا الوزير فنقول قتله أيدمر، وأنا أصالحك مع الملك باش قران، وتكون قائد جيشه، فقال عرنوس أنا ذاهب إلى مدينة الرخام لأطلق الأسرى، وأنت اسبقني إلى رومة المدائن، ودبر الأمر بمعرفتك. فذهب جوان إلى رومة المدائن، ووصل إلى ديوان باش قران، وحكى له ما جرى، ثم قال أنا قصدي أرد عرنوس إلى ديننا فيساعدك في الحروب والقتال، فقال له ليتك تستطيع أن تقوم بهذا العمل... أمّا الملك عرنوس فإنه أطلق الأسرى (الذين سبق أن طلبهم باش قران)، وعندما وصل إلى الميناء، سار الأسارى وأعلموا الملك باش قران بقدوم عرنوس، فنهض الملك وجوان واستقبلوا عرنوس ورحبوا به... قال جوان لباش قران، إجمع الجيوش أيها الملك من الآن لأخذ الثأر لوزيرك الذي قتله السلطان في ديوانه ولم يحسب لك حساباً، واجعل قائد جيوشك وسيف نقمتك الملك عرنوس...» (٢٥٥ ـ ٢٥٨)

لقد تصاعدت الأمور بإيقاع سريع، فيما بين عرنوس والملك الظاهر، فلم يخف عرنوس غضبه من الملك باش قران لقيامه بالشكوى عليه لدى الملك، بدل الاتصال المباشر به. وأبدى غضبه هذا صراحة، وإنْ غلفه بإثارة قضية الأسرى المسلمين لدى باش قران، وكأنه بذلك يشق لنفسه استقلالاً عن الملك في العلاقات والاتصالات الخارجية، ويصور نفسه في الوقت ذاته مدافعاً عن الأسرى المسلمين، ويقتل وزير باش قران في ديوان الملك، لأنه أبلغه بأن الملك باش قران يفاوض الملك الظاهر ولا يفاوضه هو، وكأنه بهذا الفعل يتحدى الملك في ديوانه. ثم إنه يُعيِّر أيدمر بأنه رقيق يباع ويشترى وهو يعرف أن القول نفسه ينطبق على الملك، وينتهي الأمر به إلى أن يقول للملك «سوف ترى نتيجة أعمالك.»

لكن الملك الظاهر قابل طيش عرنوس وحمقه، وتسرعه وبذاءته، بالأناة

والهدوء، فأمر بإحضار رفقاء وزير باش قران، وأعلمهم بموت الوزير «وأعطاهم كتاباً، وسلمهم الوزير (جثمانه) في صندوق. وقرأ باش قران الكتاب فإذا به، الذي نعلمكم به أنه صار في ديواننا فتنة كان المتسبب في إيقاظها وزيركم لطول لسانه وغروره، فكانت النتيجة أنه ذهب ضحية طيشه وتهوره، فإذا كنت تعرف أن وزيرك أحمق وثرثار، فلماذا ترسله لديوان الملك. كان الأجدر بك أن ترسل غيره... وهذا ما جرى والسلام... ولمّا أتم (باش قران) قراءة الكتاب، قال لوزرائه ولجوان إسمعوا محاولة السلطان بيبرس، كيف يتنصل من قتل وزيري في ديوانه، ويقيم التبعة عليّ، ولكن... لا بد من أخذ الثأر من السلطان الظاهر، ثم أمر بإقامة جناز واحتفال بدفن الوزير... وطلب كل النجدات، وجهز الجيوش... ثم ركب عرنوس جواده وجوان بغلته وصارا يتفقدان تلك الجيوش، وساروا... إلى أن قربوا من مدينة حلب...» (٢٥٨ ـ ٢٥٩)

وصل إلى علم «جمال الدين شيحة أن الجيوش آتية من رومة المدائن، وقائدها عرنوس لمحاربة الملك الظاهر، فتعجب من ذلك، لأنه لا يعرف ماذا جرى في ديوان مصر... سافر إلى مصر... وأعلم السلطان... أمّا عماد الدين أبو الخيش نائب حلب.. جاءته الأخبار أن جيوش الأعداء مؤلفة من سبعة ملوك والمقدم عرنوس...» (٢٥٩) والسلطان «أمر بالرحيل، فسارت الجيوش بهمة عالية...» (٢٦٠)

وقد وصل خبر عصيان عرنوس إلى أبيه معروف، فقال «اللهم لا كفر بعد إيمان، ولا ضلال بعد الهدى، ثم أمر عماد الدين ابن أخته بجمع الرجال... فلمّا وصل التقى بجيش السلطان... ودخل صيوان الملك، ثم قال هذه إرادة الله، وإني أرى... أن تكتب كتاباً إلى عرنوس، فكتب الملك كتاباً... وإذا به... أمّا بعد، فقد أغراك الشيطان، فجمعت هذه الجموع تريد أن تنتصر بها علينا... فإن أردت السلامة فاقلع لباس الغرور وعُد إلينا... فلمّا قرأ عرنوس الكتاب... أعطاه الجواب، وإذ فيه إلى الملك الطاغي الذي يدّعي المقدرة، ويغتر بنفسه، إعلم أنك إن كنت في دعواك صادقاً فلا تتكل في الحرب على بني إسماعيل، لأنهم رجالنا. فانزل أنت واضربني بالحسام كما ضربتني بالخيزرانة أمام الناس، فأنا وأنت أخصام...» (٢٦٠)

«ويرز إلى الميدان الملك عرنوس.. فبرز له أيدمر البهلوان، فقال له عرنوس إرجع وقل للملك أن ينزل إلى الملك... فنزل الملك إلى حومة الميدان، وانطبق الاثنان على بعضهما، ودوت أصواتهما كدوي الرعد، وتضاربا بالسيوف، وتطاعنا بالرماح، وهمهما همهمة الأسود، وأيقن كل منهما أن خصمه مفقود... وداما على

ذلك الحال إلى أن ولى النهار، فاستقبل معروف وإبراهيم وأكابر الدولة الملك الظاهر فرحين مبتهجين بسلامة الملك، ثم قال المقدم معروف للملك إسمح لي يا مولاي أن أنزل غداً إلى الميدان، فقال الملك هذا لن يكون لئلا ينظر إليّ ابنك بعين النقصان، ولو كان من الأعداء لكنت قتلته، لكن لي أمل أن يعود للصواب لذلك أرجو أن آخذه أسيراً. وظلا ينزلان إلى الميدان مدة عشرة أيام. أمّا عرنوس فأحضر خمسة حراب... فرأى جوان ما فعل عرنوس... فأخذ الحراب، وقلع أسنانها ووضعها في النار، ثم طفاها في السم... فقال له البرتقش ما فعلت بها، قال له جوان سممتها، فقال له البرتقش صحيح يا جوان أنك بذرة حرام...

«... وفي الصباح ركب السلطان ونزل إلى الميدان، فنزل عرنوس وتقاتلا ثم إن عرنوساً أوتر القوس ووضع فيه حربة وأطلقها... فجاءت الحربة في فخد السلطان، فشعر بالألم الشديد لأن الحربة كانت مسمومة، فأسرع إبراهيم وسعد إلى السلطان وأدركاه قبل أن يقع... فأحضروا له الأطباء وصاروا يُحكّمونه، فلمّا أفاق على نفسه... قال أدخلوا حلب فإني أخاف عليكم من هجوم الأعداء... وأقام شيحة عند السلطان يعتني به، ولم ينس أن ينسل إلى جيش العدو ويتسقط الأخبار، وفي ليلة من الليالي أتى جمال الدين إلى السلطان... فقال إن جوان والملوك الإفرنج، لمّا رأوا عساكرنا دخلت حلب... ظنوا أننا فعلنا ذلك خوفاً منهم، فرتب لهم جوان أن كل ملك يأخذ عساكره، ويحاصر باباً من أبواب حلب... فلمّا سمع السلطان هذه الأخبار جمع المقدمين، فقال إلى حسن النسر بن عجبور خذ عشرة من المقدمين، وكل مقدم معه ألف بطل مقاتل وامسكوا باب الطوابي... ثم قال للمقدم جبل خذ معك عشرة مقدمين وكل مقدم بألفي جندي، وامسكوا باب القلعة، وقال لمنصور العقاب أن يأخذ عشرة آلاف مقاتل ويمسكوا باب الشيخ يبرق، وقال لصوان ابن الأفعى أن يمسك باب النهر مع عشرة آلاف فارس... أمّا المقدم معروف فيمسك باب أنطاكية، فقال معروف أنا أحمي باب أنطاكية وحدي، ولا يتبعني أحد من الجنود... وانتظر هجوم الأعداء فلمّا أقبلوا جرد سيفه وقال الله أكبر، وهجم على الأعداء وفتك بهم... فابتعدوا عنه وولوا الأدبار... وجلس يستريح على حجر وإذ بسعد وإبراهيم مقبلين عليه بالطعام والماء... ثم سألاه هل يحتاج إلى خدمة أو مساعدة، فقال سلّما على السلطان، فقال الملك إنه بطل الزمان وفارس الأوان ولكني خائف عليه... فقد رأيته في منامي يتودع مني ويوصيني بولده عرنوس...» (٢٦٢ ـ ٢٦٣)

لقد أدرك معروف الآن عمق الخيبة التي مر فيها، واستوعب كامل أبعادها. فلقد أضاع أعواماً طوالاً من عمره في سجن كنيار، وعندما عاد أضاع سلطنة القلاع

والحصون بتنازله عنها إلى شيحة. وظن أنه قد عوض شيئاً مما فقده باستعادة زوجته وابنه، وبفرحته الكبيرة بهما، لكن ارتداد ولده إلى المعسكر الصليبي أصابه بالضربة القاضية، ولم يبق له من مطمع في الحياة. لقد صمد أمام ملمات الحياة كلها، بعد أن امتلأ قلبه بحب مريم، وظل الحب مصدر قوة وتشجيع له على التشبث بالحياة.

ولقد آلمه حقاً في هذه المرة أن يبارز ابنه الملك الظاهر، بعد أن فتح له الملك الأبواب الرحبة للصعود في الضفة الإسلامية من هذه الحياة، وتمنى أن يكون هو المبارز لابنه بدل السلطان. لكن السلطان الذي كان قد طيب خاطره بدايةً بأن كتب إلى عرنوس قائلاً «عُدْ إلينا»، طيب خاطره مرة ثانية بأن قال له «لي أمل أن يعود للصواب»... إلاّ إن حربة جوان المسمومة التي سددها عرنوس إلى الملك قضت على آخر أمل له. ولم يبق أمامه الآن سوى أن يتمنى الموت شهيداً «بطل الزمان، وفارس الأوان»، كما قال الملك لإبراهيم، مدحاً له، أو رثاء مسبقاً.

«وداوم (معروف) على هذه الحال أربعة أيام، وهو ينتصر على الأعداء، فشكوا أمرهم لجوان مما لاقوه من المقدم معروف على باب أنطاكية.. فرأى إبراهيم وسعداً حاملين الطعام والماء، فعرف أنهما كل يوم يحملان الطعام والماء في هذا الوقت... وفي اليوم الثاني أحضر جوان اثنين من العياق، وغيَّر ملابسهما وحمَّل الواحد طعاماً، والثاني ماء، وقال لهما، عندما ينتهي القتال ويقعد معروف على الحجر فقدما له الطعام والشراب، واحد من ورائه وواحد من الأمام، فالذي من الأمام يلهيه بالكلام، والذي من ورائه يضربه بالحسام... فصاح من شدة الألم إلى أن وقع على الأرض والدماء تسيل من جراحه، ثم إنه أسند رأسه إلى الجدار وأسلم الروح، وفي هذه اللحظة كان الشقيان قد هربا إلى جوان، وأعلماه بما جرى، فلمّا أقبل إبراهيم وسعد حاملين الطعام والماء... رأياه مفارق الحياة، فانكب عليه إبراهيم وسعد وهما يبكيان ويصيحان... ثم أوصلاه إلى القلعة وشاع الخبر... وأقبل السلطان الظاهر، وكشف عن وجه معروف وقبَّله وبكى عليه، ثم قال، لو كنت تُفتدى لفديتك بالروح والمال، رحمك الله رحمة واسعة، الوداع يا معروف، هذا يومك الذي وعدك الله فيه... ووضعوه في النعش وحملوه على الأعناق، ومشى خلفه السلطان الظاهر والوزراء والأمراء والمقدمون والأهالي، ثم صلوا عليه وحملوه على الأيدي ليدفنوه في المقبرة، إذ بامرأة شريفة يقال لها الست أبارة أقبلت إلى السلطان، وقالت يا مولاي أنا قد وهبت هذه الزاوية للمقدم معروف فادفنوه فيها، فقبل الملك... ودفنوه فيها، ثم أمر السلطان المؤذن أن يبلغ الناس أن الصباحية ستكون بأخذ الثأر وكشف العار، وأن يكونوا على حذر لأننا نهار غد إن شاء الله نخرج إلى الأعداء...

«. . . أمّا جوان فأرسل واحداً من اللذين قتلا المقدم معروف إلى عرنوس يبشره. . . فقال عرنوس أرني الحسام الذي قتلتم به معروف، فأعطاه الحسام، فأخذه منه وضربه به رماه قطعتين على الأرض. . . وركب جواده فرأى أبواب حلب مفتوحة وجيوش السلطان الظاهر وعساكره تخرج منها. . . ورمى نفسه على الأعداء الإفرنج. . . وظلت الحرب على أشُدها من الصباح إلى عصر النهار، وإذا بهجوم صاعق من أبطال على خيول عربية ومن هجانة. . . يُقَدرون بعشرين ألف مقاتل. . . فذُهل الأعداء من هذا الهجوم المفاجئ. . . وتراجعوا إلى الوراء، وقسم جيشهم إلى قسمين، قسم ولى هارباً، وقسم انحصر بين الهجانة وبين جيش السلطان فاستسلم منهم ما ينوف عن ثلاثين ألفاً، ثم إن الهجانة لحقت القسم المنهزم، وظلت تطارده وتفتك به مدة ثلاثة أيام. . . إلى أن أخلوا منهم الديار. . .» (٢٦٣ ــ ٢٦٥)

لقد اختار معروف طريق الموت، ولقي ما خرج من أجله. وعندما طلب أن يحمي باب أنطاكية وحده، لم يرفض السلطان طلبه، وأبى أن يساعده إبراهيم وسعد في «مهمته» إذ ما مهمته سوى الموت. وكان السلطان عارفاً بما اختاره معروف؛ إذ قال لإبراهيم وسعد، عندما أبلغاه نبأ وقفته الأولى «رأيته في منامي يتودع مني، ويوصيني بولده عرنوس، وقال لي أنه مسافر. . . وبعد أن تودع مني غاب فلم أعد ألمحه، فقال إبراهيم (وهو الخبير بالملك) خيراً رأيت إن شاء الله أيها الملك.» فالجميع يعرفون منذ أن ارتد عرنوس إلى الأعداء، أن الوقت قد حان لموت معروف، وأن من الخير والشرف أن يختار موته بنفسه، فلم يتردد.

«أمّا الملك عرنوس، لمّا كان يحارب الأعداء. . . رأى السلطان يراقبه فخجل من نفسه. . . فعندما انتهت المعركة بنصر السلطان وجيوشه على الأعداء، هام على وجهه سائحاً في البراري. . . ثم إن عرنوساً ركب جواده ودخل المدينة (مدينة الجهجير) ونزل في خان وسلم حصانه للخاناتي وطلب منه غرفة للسكن. . . وشعر بالحُمى تدبّ في جسده، فاضطجع على التخت فأتاه صاحب الخان، وقال له هات أجرة الغرفة، فقال عرنوس خذ هذا الكيس واصرف عليّ وعلى الحصان. . . وغاب أسبوعاً، فقال له إصرف ما بقي بالكيس، فقال له الكيس فرغ، فقال له خذ الحصان وبعه، وباعه بمئة دينار ثم عاد إليه بعد أسبوع. . . وهكذا حتى بيعه عدة الحصان والسيف والترس، ثم عاد فبيعه القلنسوة والدرع الكنوزي، ثم عاد. . . فقال له لم يبق عندي شيء أُعطيك. . . ثم حمله وأخرجه من الخان، ووضعه على قطعة حصير، وغطاه بخيشة جنفاص وتركه. أمّا عرنوس فقد اشتد به المرض وهو مطروح في الطريق. . .» (٢٦٧ ــ ٢٦٨) ومرّ به موكب الملكة نوربخت فسألت عنه، وعرفت قصته، واعتنت به، وطببته حتى شُفي. أمّا الملك فأرسل إلى الخاناتي من يأتي به

حالاً فأحضروه، فسأله عن الحصان وعن أموال عرنوس وسلاحه، قال بعت الحصان وعدّته من الوزير، فأحضر الوزير وطلبها منه، فأتى بها جميعاً، فقال له الملك إن هذه الأشياء تساوي خزنة مال، فكيف ابتعتها منه بأبخس الأثمان.

وعلم عمه، المقدم إسماعيل أبو السباع، باختفائه فطلب من السلطان إذناً في البحث عنه فأذن له، فوجدوه أخيراً في مدينة الجهجير. ولمّا سألهم الملك عرنوس عن الملك والجنود والعساكر، فقالوا له «الحمد لله كلهم بخير، وقد أعطانا الملك أمراً بالعفو عنكم... فلمّا قرأه قال لنطلب إذناً بالعودة إلى الأوطان...» (٢٧٠ ـ ٢٧١)

«أمّا الملك عندما وصل إلى مصر، انعقد له الموكب، وسار إلى قلعة الجبل، وجلس السلطان على عرش مصر، وأقام يتعاطى الأحكام بالعدل والإنصاف، وفجأة ظهر الحزن والألم في وجه الملك... فقال... إني رأيت الليلة الماضية مناماً تأثرت منه، وهذا سبب ألمي، قال إبراهيم خيراً رأيت إن شاء الله، قال الملك رأيت نفسي في بستان، ورأيت عرنوساً له أجنحة ويريد الطيران فخفت عليه، فوضعته في قفص فأتت طيور سود وصارت تدور حوله، فأردت أن أطردها عنه فما لحقت أن أُدركه إلاّ والطيور مالوا عليه وقطعوه، وأنا خائف على عرنوس، قال إبراهيم العمر بيد الله فلا تخف عليه...» (٣١٠)

أمّا الملك عرنوس، «فقد أقبل من مدينة الرخام... فترحب به السلطان، وأجلس عرنوس بجانبه وآنسه وباسطه، فقال له يا أمير المؤمنين أنا رأيت مناماً من مدة، وأرغب أن تسمعه مني، فقال السلطان خيراً لنا وشراً لأعدائنا، فما رأيت يا ولدي، قال رأيت والدي... في المنام يقول لي أنا مشتاق لرؤيتك يا ولدي ومنتظر زيارتك، فقلت له وأنا أريد أن أترك عيالي وأولادي وأُقيم معك، فقال لي عيالك وأولادك سوف يتبعونك، ولك عندي زوجات ينتظرنك، وهن من بنات الحور العين فارغب في الجهاد والقتال لتنال لذة الوصال، ثم ضمني إلى صدره. فانتبهت وأنا مشتاق لرؤيته. قال السلطان على المرء أن يزهد في الدنيا لينال النعيم في الآخرة...» (٣١١)

فهل أراد عرنوس يا ترى أن يُبلّغ السلطان أنه قد أصبح مستعداً للموت، وأنه يختار مثل ميتة أبيه في «الجهاد والقتال»، ولا داعي لميتة أخرى قد يفكر السلطان في إعدادها له. وبماذا أجاب السلطان. لقد لمّح إلى نعيم الآخرة، واكتفى بالإشارة إلى الزهد في الدنيا وسيلة للوصول إلى نعيم الآخرة... أقر معه بأن ساعة المنية قد دنت، لكن لم يعد بشيء عن الميتة التي تنتظره. لقد سمح لمعروف بأن يختار ميتته. أمّا عرنوس فشيء آخر.

لقد أصبح المسرح معداً للمشهد النهائي في هذه المأساة، مشهد السباق المفزع بين ميتة يطلبها عرنوس لنفسه، وميتة أعدها السلطان له.

«وفيما هما كذلك وإذ بنجاب داخل من باب الديوان ومعه كتاب... من نائب حلب، إننا يوم تاريخه امتلأ الغبار ثم انكشف عن جيش جرار وعلى رأسه الملك رومان الأزرق، ومعهم جوان... وإذ بنجاب قادم من الشام... يقول إنه حط على الشام جيش من اللئام وهي تطلب النجدة... وورد كتاب ثالث من اللاذقية، ويذكر فيه أن اللاذقية محاطة بعساكر تسد منافس الهواء... فقال عرنوس أنا أول من يركب ويجاهد في سبيل الله، فإن انتصرت فذلك الفضل من الله، وإن مت شهيداً فهذا ما أتمناه لأنال مقامي الذي أعده الله لي في الآخرة...

«.... عند ذلك بدأ السلطان يؤانس عرنوس ويلاطفه ويسليه، إلى أن قدم الطعام للسلطان، وقال لعرنوس تفضل كل معي، فأكل معه، ثم قدموا لهما الشراب، فشرب عرنوس وداخ وصار لا يعي على شيء لأن الشراب... كان مبنَّجاً بأمر من الملك. ثم وضعه في السجن وصحاه، فقال عرنوس لماذا بنّجتني يا مولاي، اتمنعني عن الجهاد، فبكى السلطان، وقال إن أباك كان عزيزاً عليّ... وأنت خلفه من بعده، وكلما نظرت إليك كأني أنظر إلى أبيك، وإني خائف عليك من هذه الحملة، ولا أريد منك أن تراها، فلا تخالفني. فقال عرنوس أطلقني يا مولاي، لأنه ليس لنا مفر من القضاء والقدر... فقال له صدقت، ولعل إقامتك هنا الآن فيها الخير والصلاح والسلامة ثم تركه الملك...

«... أمّا الملك عرنوس فقد أتى إليه السعيد ابن الملك الظاهر يزوره، ويأخذ بخاطره، وينصحه بأن لا يغتم ولا يحزن، فقال له عرنوس، أنا لم أعمل ذنباً مع السلطان، حتى يضعني في السجن كأني مجرم، فأشفق عليه السعيد، وقال إحلف لي أنك لا تذهب إلى الجهاد في هذه الحرب وأنا أُطلق سراحك، فقال عرنوس إذا أطلقتني من هذا السجن، لا أذهب إلى الجهاد إلاّ إذا قلت لي أنت اذهب، وحلف على ذلك، ففكه السعيد وأخذه معه، وأحضر له الطعام وأكل معه. أمّا عرنوس فقد زاد شوقه إلى الجهاد... فقال للسعيد قل لي توجه للجهاد والحق السلطان، وإلاّ قتلتك، فقال له لا تقتلني ولا أقتلك، إذهب وجاهد في سبيل الله، فركب عرنوس جواده وطار مثل البرق...

«.... وصل الملك عرنوس (إلى دمشق)، ورأى الحرب دائرة فحمل على الأعداء... فظل يصول ويجول بين عساكر الأعداء... فخاف عليه السلطان، وقال له يا ولدي إذا فاتك القتال اليوم فلن يفوتك غداً، فقال سمعاً وطاعة، وعاد مع السلطان وجلس بجانبه، فقال له السلطان إن طعم الموت مرّ، لا يقبله عبد ولا حرّ.

فقال عرنوس ومن يستطيع الهروب من الموت، إن لم يمت الإنسان في الجهاد في سبيل الله مات على فراشه. فظل الملك يباسطه ويسليه إلى أن حضر الطعام، فقال لعرنوس تفضل معنا، فقال عرنوس إني لا أشتهي الأكل إلاّ من ثمار الجنة، فلمّا رآه مصمماً على خوض المعارك، قال للوزير شاهين ما العمل، فأشار عليه أن يضعه في السجن حتى تنقضي هذه الحملة فأمر الملك بالقبض عليه، ثم قال له ليس عندي أعز ولا أغلى منك، ولا يهون عليّ أن يقتلك الأعداء، ثم سلمه لنائب الشام، وقال له احفظه في القلعة معزوزاً مكرماً. . .

«ثم إن السلطان كتب كتاباً (من حلب)، وأرسله مع إبراهيم لرومان الأزرق. . . فلمّا قرأ الكتاب قال لجوان إنْ لم تدبر لي أمراً على هلاك السلطان قبضت عليك وسلمتك إليه واتفقت معه، فقال جوان عندي عشرون بطلاً مغواراً. . . ونزل منهم فارس فأمر السلطان أيدمر البهلوان أن ينزل إليه. . . وضربه بالسيف أرداه قتيلاً، فنزل إليه الثاني ألحقه بالأول، وكذلك الثالث والرابع إلى أن قتل عشرة. . . فقال جوان للعشرة الباقين انزلوا إليه وانتقموا منه لرفاقكم، فإنه تعب ولم يبق فيه قوة ليتابع، فنزل إليه بطل وصدمه صدمة الأبطال، فتلقاه فارس بالسيف أطاح رأسه، ولم يزل يقتل واحداً بعد واحد حتى قتل العشرين. فلمّا رأى السلطان هذه البسالة والبطولة حقق النظر في ذلك الفارس، فإذا هو الملك عرنوس، فقال لإبراهيم إذهب وأحضره. . .

«وعاد السلطان وعرنوس وإبراهيم وسعد وباقي الأبطال إلى الخيام وهم مثل شقائق الأرجوان مما سال عليهم من دماء الأعداء، وبعدما بدلوا ملابسهم، جلس السلطان وجلس عرنوس بجانبه، فقال عرنوس، لماذا تمنعني من الجهاد في سبيل الله وتحبسني. . . فقال له أنت تعلم السبب هو خوفي عليك من الأعداء، ولكن قل لي من الذي أطلقك من السجن بالشام، فقال أطلقتني جارية كان نائب الشام جعلها لخدمتي، واسمها جوهرة، وقلت لها إنْ خلصتني من السجن أتزوجك، ففكتني. . . وتركتها وأتيت وجاهدت معكم على قدر استطاعتي، فقال له السلطان بعد انتهاء الحملة قُمْ بوفاء عهدك، ثم قال له أنت لا تطيعني، أما تعلم أن إطاعة الملك فرض مطلوب، قال نعم ولكن الجهاد فرض على كل مسلم، فأرجو أن لا تحرمني من أداء فريضة الجهاد. . .

«فلمّا وصل السلطان إلى اللاذقية. . . وأول من نزل إلى الميدان الملك عرنوس، فقد لحق بجيش السلطان. . . فقال الملك لعرنوس أصلحك الله، أما اتفقنا أن تظل بحلب بدون حبس، فقال شيحة جمال الدين الحذر لا يمنع القدر، والرأي عندي أنه كلما دارت رحى الحرب، ضع برجليه ويديه القيود واتركه بالصيوان حتى

ينتهي القتال تفكه، فأمر السلطان بقيد عرنوس، ووضعه بالديوان وعيَّن له خدماً وحراساً. . .

«. . . وكان قد شاهد هذا الأمر جاسوس من الأعداء، فذهب وأعلم جوان والملك رومان بأن عرنوس مقيد وهو في الصيوان، فقال جوان لولا عرنوس كنا انتصرنا على الملك الظاهر، فالآن صارت عندنا فرصة لقتله، وهي إنني غداً عندما أهز العلم وتحصل المعارك تذهب أيها الملك مع ألف فارس من وراء جيش السلطان وتدخل الخيام، وتقتل عرنوس، فهو بالصيوان مقيد بيديه ورجليه، ثم تعود بأمان. . . وتقدم رومان إلى عرنوس وضربه بالسيف على رأسه شقه نصفين، فمات شهيداً. ثم عاد رومان بعسكره إلى جيشه. . . فلمّا رجعت عساكر السلطان إلى خيامها رأوا هذه الفاجعة، فرمى المقدم إسماعيل نفسه على ابن أخيه وبكاه بالدموع. . . أمّا السلطان فكان أشد الجميع حزناً ولوعة على عرنوس، فبعد أن هملت دموعه على خديه كفكفها، ثم وقف بين الجميع فخطب فيهم خطبة بليغة حمسهم فيها على الجهاد وعلى الانتقام للملك عرنوس. . . وقد قُتل في هذه الحملة ما يزيد عن أربعين ألفاً من الأعداء وخمسة آلاف من عساكر السلطان الظاهر، وقُتل من ملوك الإفرنج عشرة وأسر اثنان. . . ثم أمر السلطان ببناء قبر لعرنوس، ثم غسلوه وكفنوه وصلّوا عليه ودفنوه، وذبحوا على قبره رومان الأزرق والملك الذي أسره إبراهيم الحوراني. . .» (٣١١ ـ ٣١٨)

رابعاً: ملاحظات بشأن رواية «سيرة الملك الظاهر بيبرس»

نعتقد أن هذه الرواية، التي عرضناها بإسهاب، وبالاعتماد على الاقتباس من نصها الأصلي، هي إحدى روائع الأدب، ولا يقتصر حكمنا هذا على الأدب العربي وحده، بل إنها تحتل موقعاً ممتازاً ومتميزاً في الأدب الإنساني كله.

فهي تمثل نضال الشعوب الإسلامية في بر الشام وبر مصر، ومن خلفها شعوب عربية وإسلامية أُخرى، في التصدي للهجوم الصليبي، ودحْره، وردِّه على أعقابه. كما أنها تصف تقدمها للطوفان التتري المغولي، وإيقافها له. وهي تتعامل مع الأحداث بواقعية تلفت الأنظار. ولئن عالجت الأحداث من خلال أعمال الأبطال، وعلى رأسهم الملك الظاهر بيبرس، فإنها قريبة من واقع حياة الناس، ومدركة الارتباط الكبير بين الحياة اليومية والمعيشية لأبناء الشعب وبين الأحداث الجسام التي تجري حولهم. ويتمثل هذا الإدراك في أن بطولة بيبرس، في نظر

الرواية، لا تقتصر على إنجازاته العظيمة في حرب ضروس ضد الصليبيين من ناحية، وضد التتر من ناحية أُخرى، وعلى جبهتين شرقية وغربية، بل تشمل أيضاً تمهيدها لهذه الإنجازات بالتقرب من الشعب، وبالعمل الحازم على نشر العدل، والدفاع عن حقوق الناس، وإقرار الأمن، واجتثاث الجريمة، والقضاء على المجرمين وعصاباتهم بحزم، وفي إطار من الشرع. وبالتالي، يصح القول حتماً إن شعبية هذه الرواية شعبية متميزة؛ فهي لا تتوقف عند «الإعجاب» الشعبي بالأبطال، كصور مُثلى، ترفع الناس من خلال المطابقة نفسياً، وتوفر لديهم الحوافز، وتبدع لهم أهدافاً وأساليب، وتحركهم نحو العمل الجليل الذي ترسم الصورة البطولية محتواه، وتعوضهم من هزائم الحياة، وتشغلهم عن همومها، لكنها أيضاً تتناول شؤونهم وشجونهم.

ولو اكتفت الرواية بمواكبة التاريخ أو بتكميل صورته، لاقتصر مكانها على كونها سجلاً رقيقاً للمدونات التاريخية التي كتبها مؤرخو العصر. لكنها ترقى كثيراً عن مثل هذا المستوى، الرفيع في حد ذاته في أية حال. فهي عمل فني يستوعب جميع المقومات التي ترتكز «الرواية الأدبية» عليها. ومن هنا، فإنها تبتعد في كثير من الأحيان عن واقع التاريخ أو عن تسلسل أحداثه، لتشق طريقها الفني والأدبي.

وتظهر المقومات الأدبية التي ترتكز الرواية عليها في صور شتى. فمن هذه الصور أن لها إطاراً روائياً تجري الأحداث من خلاله في روعة مسرحية، وفي نظام متماسك. وكلما أمعنا النظر فيها أدركنا مدى تماسكها. بالتأكيد إنها ليست فقط مجموعة قصص تجمع بينها وحدانية الراوي، كألف ليلة وليلة؛ فحوادثها تظل ملتصقة بالأقنية الأساسية لأحداثها، لا تكاد تبعد عنها حتى تعود إليها. وليس فيها «استطراد حر»، على الرغم من كثرة الموضوعات والأحداث التي تتناولها. ولا شك أن فيها بعض التمددات والزوائد، نتيجة لظروف نشوء القصة وظروف إلقائها، لكن حتى هذه التمددات والزوائد تجد لنفسها مكاناً ضمن الإطار العام الذي انتهجته الرواية. وتغلب عليها وحدة النظرة والأسلوب، حتى في المغامرات. ولئن كان بعض المغامرات يواجه مفاجآت «عجائبية»، فإن إمعان النظر في هذه المفاجآت يضعها في باب الحيل الهندسية التي كانت معروفة ومتطورة في تلك الأيام، السابقة عهد الحيل الإلكترونية المعاصرة. ويمكن القول، بالتأكيد، إن القصة تجري في إطار من قوانين الطبيعة. وقد نستثني من هذا القول الفصل الخاص بالحملة التي جردها الملك الظاهر على الأحباش والسودان، إذ إن هذا الفصل يعكس ما كان الصليبيون يلقونه من دعم ومؤازرة من بلاد النوبة وأعالي النيل، وصولاً إلى الحبشة، حيث كان الانتشار النصراني سائداً. لكن هذا الفصل وحده، من دون سائر

الرواية، حافل بأمثلة من الوجود الجِنّي والعفريتي وأعمال السحر المسخَّرة للحرب. إلاّ إن انهزام السودان والأحباش هو رمز لانهزام السحر أمام قوانين الطبيعة. وهذا يجاري ما أثبته القرآن الكريم وثبّته من بطلان السحر وتهافته. ويبقى الفصل مع ذلك مشهداً ممتعاً أخّاذاً لأنه يعكس الخيال الشعبي السائد تجاه أعماق إفريقيا وجوها الطبيعي والسحري؛ ولو استعملنا مصطلح الألوان لقلنا إنه مرسوم بألوان مختلفة عن الألوان التي رسم باقي مشاهد الرواية بها. ونلحظ أن الراوي لم يكد يتوقف عند حكاية شجرة الدر، على الرغم مما في الحكاية من إغراء واستهواء، ولعل ذلك يرجع إلى إدراك الراوي أن الأثر التاريخي لتلك الحكاية ظل هامشياً وأن ليس لها موقع مهم في «روايته».

تتجلى عبقرية الرواية في أنها تقوم على حبكتين متداخلتين: إحداهما حبكة الصراع الإسلامي ـ الصليبي، والأُخرى قصة الحب التي نشأت بين معروف بن جمر ومريم بنت ملك جنوا في جو هذا الصراع. وتمضي هذه القصة في طريقها كسفينة تشق عباب بحر لتفصل مياهه الواحدة، دافعة بعضها إلى هذا الجانب وبعضها إلى الجانب الآخر، إذ إنها تتعامل في آن معاً مع الصراع الداخلي الإسلامي مع الإسماعيلية في هذا الجانب، واستمرارية الصراع الإسلامي ـ الصليبي في الجانب الآخر.

ولو نظرنا إلى رواية الملك الظاهر من موقعها من الزمان، أي من عصر الملك الظاهر، لقلنا إنها رواية مستقبلية. فلئن كانت من حيث تصورها الأساسي، كرواية شعبية، تصنَّف ضمن أدب البطولات أو الـ epic، فإنها تشكل نقطة تحول حاسمة وبارزة باتجاه ما أصبح فيما بعد أدب الرواية، الذي يشكل في أيامنا هذه القاعدة الأساسية لكل أدب عظيم. وهي سابقة قصة سرفانتس «دون كيشوت» في هذا المجال، بل إن فيها مشهداً دون كيشوتياً سنتكلم عليه لاحقاً. لكنها تتضمن عناصر أُخرى تسبق وتتجاوز بها حتى فترة بداية العصور الحديثة ـ تلك الفترة الإبداعية التي شهدت سطوع نجم شكسبير في أدب المسرحية ـ لتصل إلى أنواع من الأساليب القصصية التي طورتها الآداب مع تطور التجربة الإنسانية ذاتها. إننا عندما نشهد عرض عالم الجريمة أمام بيبرس بحضور المقلد، وإخراج الأسطى عثمان، نجد أنفسنا كأننا دخلنا عصر ديكنز ودوستويفسكي بواقعيته القاسية. ونلمح من التحقيق الذي يجريه عرنوس بشأن تسميم الملك الظاهر، ما يذكرنا بـ «الجريمة والعقاب»، ونرى في شخصية شيحة جمال الدين واحداً من أعظم الشخصيات الروائية في أدب الاستخبارات وحروبها، وهو لون طغى بصورة خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك من خلال كتّاب مثل فريدريك فورسايث، وجون ليكاريه، وإيان فلمينغ.

والمغامرات التي ترويها القصة مغامرات عريضة القاعدة، بالغة التنوع، تتألف من عمليات برية وبحرية وبرمائية. لكن لا أثر فيها للطائرات والسمتيات إلاّ في الحملة الإفريقية، حيث يؤدي الجن والعفاريت هذا الدور. لكن شيحة جمال الدين يختلف عن أبطال الاستخبارات في أنه ذو مستوى إنساني رفيع لا مجرد آلة تقانية متحركة. ولا نعرف في أدب الرومانس ما هو أروع من حكاية معروف ومريم وولدهما عرنوس، ونهاية معروف ثم عرنوس المأساوية. وتعيد الرواية إلى أذهاننا، من ناحية هذه القصة، رواية تولستوي «الحرب والسلام» التي تُبرز تداخل الحرب والسلام في حياة الإنسان الفرد والمجتمع.

إن لرواية سيرة الظاهر ثلاث نهايات، نضيف إليها نهاية رابعة تشكل في مجموعها مفهوم «النهاية المطبَّق فيها». فقد لمّحنا إلى ثلاث من هذه النهايات، وهي نهاية جوان التي ترمز إلى تحطم الروح الصليبية، ونهاية الملك الظاهر نفسه، التي ترمز إلى انتهاء الحقبة الإسلامية المقابلة والتهيؤ لحقبة أُخرى تالية، ثم نهاية معروف وعرنوس، التي تشكل الإبداع الأدبي المتميز للرواية.

لكن الرواة يلاحقون الأحداث بالتصاق مختصر مع تاريخ المماليك حتى تصل إلى خليل الأشرف، الذي سأل حين توليه الحكم «عن ملوك السواحل وعن البلاد التي يحكمون عليها، فقالوا له لم يبق إلاّ عكا وصور وصيدا، وكل مدينة فيها ملك يحكم عليها، وهؤلاء دأبهم النهب والسلب وأذى الناس... فأمر بتجهيز الجيش والسير به إلى مدينة عكا... وقال إن الإفرنج لمّا احتلوا عكا قتلوهم (سكانها) عن بكرة أبيهم فعلينا الآن أن نعاملهم بالمثل... ودخل الجيش إلى عكا وقتلوا كل من فيها، وأخذوا النساء والأطفال سبايا... ولم يبق فيها أحد بعدما ملكوها وسكنوا فيها قرابة مئة وثلاثين عاماً. أمّا الإفرنج الموجودون في مدينة صور ومدينة صيدا، لمّا سمعوا ما جرى على مدينة عكا ذعروا وخافوا، فملأوا مراكبهم بأموالهم وأمتعتهم وارتحلوا في البحر، وفي رحيلهم كان انتهاء الحروب الصليبية التي دامت مئتي عام...» (٣٥٥ ـ ٣٥٦)

ويتذكر الراوي المتأخر أن من إنجازات المماليك إعادة الخليفة العباسي وتنصيبه في القاهرة رمزاً للدولة الإسلامية. ويأتي آخر الرواة ليضيف العبارة التالية «ثم جلس الملك الأشرف قانصوه الغوري... إلى أن هاجمه السلطان سليم العثماني وانتصر عليه، واحتل منه بلاد الشام ومصر، وسائر مملكته، واستولى على الخلافة، وبايعته العلماء والأشراف وأعيان البلاد وأمراؤها وسائر الرعية بالخلافة، وأرسل له شريف مكة المبايعة بالخلافة ومفاتيح الحرمين مع وفد من قِبله، وانتقلت الخلافة إلى بني عثمان في القسطنطينية، وصاروا يتوارثونها عن بعضهم البعض.

وكان آخر الخلفاء محمد وحيد الدين، وقد ألغى الخلافة الثائر مصطفى كمال باشا. فسبحان الدائم على الدوام بعد فناء خلقه، والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه البررة الميامين آمين.» تمت سيرة الملك الظاهر بيبرس. (٣٥٩)

وننتقل الآن إلى نقد الرواية. لقد سبق أن لاحظنا إدراكها للطبيعة العلمية والحضارية للصراع الإسلامي ـ الصليبي. وقد كان سهلاً على الرواة أن يختاروا رمزاً للجانب الإسلامي في هذا الصراع، وذلك هو بيبرس. فهو رجل تطلع إلى القيادة الإسلامية، وأعدَّ نفسه لها، وكافح حتى توصل إليها، متوسلاً إلى ذلك جميع الحيل والوسائل، ومن ثم مارسها. وهو شخص تاريخي، وجد حقاً، وعاش حياة بيِّنة الخطوط والمعالم. ولقد ملأ بقيادته الشجاعة والمظفرة فترة زمانية محددة مكثفة الأحداث، سريعة الإيقاع، حاسمة النتائج. ومن هنا، فإن «القالب» الذي تعده الرواية، لتسكب فيه شخصية الظاهر بيبرس، مستوحى من الواقع التاريخي، ومبني عليه. وتصبح مهمة الفكرة والخيال مهمة توضيح للمعاني، من خلال التلوين والظلال، والإضافات الجانبية.

أمّا الجانب الصليبي، فلا يمكن سكبه في قالب ملك، أي ملك. لقد ساهم في الحروب الصليبية ملوك أوروبيون كثيرون، ثم إنها أقامت عروشاً وإمارات في الأراضي التي استباحتها. ولا شك في أن الراوي وجد صعوبة في تمثيل الجانب الصليبي، لكنه توصل إلى حل عبقري، بابتداع شخصية جوان. ويتجلى إبداع التصوير في رسم الخلفية التي نشأ جوان فيها ـ خلفية الشقاوة والاغتصاب واللاشرعية ـ وتمييزها من المسيحية المثلى. ونشهد في هذا التميز صورة لواقعين: عقائدي وتاريخي. فأمّا الواقع العقائدي، فيتمثل في أن الإسلام يعترف بالمسيحية ويكن احتراماً شديداً لها، على الرغم من إدراكه وجود اختلاف بينه وبينها في العقيدة، وبالتالي فإنه لا يستطيع أن يتعامل معها بخلاف ما لها من موقع في العقيدة الإسلامية ذاتها. أمّا الواقع التاريخي، فهو أن العالم الإسلامي كان في أثناء الحروب الصليبية يضم في أرجائه وجوداً مسيحياً كبيراً، وما زال كذلك إلى اليوم. فالدولة إسلامية، أمّا السكان فمسلمون ومسيحيون.

أمّا جوان فهو شخصية تقع في مكان وسط بين النموذج والتجسد الإنساني؛ فهو طيف، أو خيال، أو روح، أو وسواس، ليس له في الحياة سوى هم مزدوج: بث أسباب الفوضى والفساد والوهن في عالم الإسلام، والتحريض عليه في العالم الصليبي. ويمكننا أن نعتبر اتساع رقعة عملياته في البلاد الإسلامية، وتغلغلها في مختلف الطبقات والأوساط، مظهراً من مظاهر الأثر النفسي الذي أحدثته الحروب الصليبية، والذي ينعكس وهناً في بعض المجالات، وعزماً مكافحاً في مجالات

أُخرى. وكما نراه في الجانب الإسلامي طيفاً متحركاً، لا يكل ولا يتراخى، نراه في الجانب الصليبي كذلك. فإن تحريضه هنا قد سبب الكثير من الكوارث، ودفع أعداداً كبيرة من الناس إلى الموت، وتقاطع مع مسارات التجارة والمصالح، وهو يتعرض في الرواية لانتقاد متصاعد ليصبح إعراضاً عمّا يمثله، ويتخلى عنه جانبه الصليبي في النهاية، ويتركونه يلاقي حتفه.

يقول الملك الظاهر في رسالة إلى ملك رومة المدائن باش قران، «كما وقع بأيدينا جوان وغلامه (البرتقش) مرات عديدة ونحن نعفو عنه، فيعود ويحرض الملوك بالركوب علينا، وكأنه دأبه الأذية والعدوان، وقتل الإنسان بدون حق..» نلاحظ أن عبارة «ونحن نعفو عنه» هنا تتضمن بالنسبة إلى الروائي، أن دور جوان التحريضي لم يكن قد انتهى وقت كتابة تلك الرسالة، إذ إن جوان ليس إنساناً محدداً، بقدر ما هو روح هائجة. وهكذا نرى أن الملك الظاهر عندما يأمر بقتل جوان والبرتقش، في هذه المرحلة بالذات «منعه شيحة من ذلك، وقال يا أمير المؤمنين، إبقهم وكل شيء له أوان...» أي أن الروح الصليبية لم تستوف بعد كامل طاقتها واندفاعها وعزمها.

وعندما يتسلم باش قران الملوك الثلاثة وجوان والبرتقش، فإنه يتوجه إلى الملوك بالعبارات التالية: «إرجعوا إلى بلادكم ولكن على شرط أن لا تأتوا بأعمال شائنة، ودعوا القوافل تسافر بينكم وبين جواركم يشترون منكم بضاعتكم وتشترون بضاعتهم، فهو أحسن وأنفع من قطع الطرق والخراب.» أمّا جوان والبرتقش فيقول لهما: «والآن اذهبا واستقيما في معبد أو دير.» وهذا هو التلخيص الشعبي لعبثية الحروب الصليبية، ومناقضتها للمصالح والمبادئ، ولوعي كان قد بدأ يظهر حتى في العالم الصليبي بشأن هذه العبثية. فلقد ظهر الآن من يقول إن التجارة خير من الحرب، والاستقامة في معبد أو دير خير من الأذية والعدوان وقتل الإنسان بدون حق... (١٨٢)

وجوان «التجسيد الإنساني» يتبدّى بأكمل قدرته على التلون، والعمل الخفي، حين يتسلل إلى ديوان الملك الصالح ويعيَّن قاضياً للقضاة في الديوان. فهنا نلحظ إنساناً يؤدي دوراً مزدوجاً في غاية الدهاء حتى لا تنكشف شخصيته، ويفلح في الإفلات، ويوقع بيبرس في مصيدة مُحْكَمة، ويضعه في صندوق وينقله إلى جنوا. ولقد شهدنا في أيامنا معالم حيّة لهذه الصور كلها. ويكفي أن نذكر إيلي كوهين، وفيلبي، وبرغس، وماكلين. وكذلك حوادث الخطف والصندقة التي قامت استخبارات كثيرة بها في أيامنا، بينها الاستخبارات المصرية والاستخبارات الإسرائيلية. وفي هذا كله إطلالة على مقدار استباق رواية الملك الظاهر لزمانها.

أمّا جوان الطيف أو الشبح أو الوسواس، فنلتقيه في مواقع عدة، منها حديثه مع مرين ومرينة، وإغراؤه لهما بتسميم الملك. ففي البداية جاء تعرّف بيبرس إلى مرين مصادفة، في أثناء تفتيشه عن ابنه السعيد، فينشرح صدر مرين للإسلام من دون مقدمات، ويطلب إلى الملك أن يعطيه الفرصة لتغيير وطنه وولائه. . . «أريد أن أكون. . وفي خدمتك حتى أموت. . قال له السلطان إفعل ما تريد. .» فلعل إسلامه إذاً كان مجرد إسلام مصلحة أو لعله كان يُبيِّت في نفسه أمراً. . . ويظهر في طريقه جوان على هيئة «شيخ جليل القدْر ووراءه تلميذ. . وما زال جوان يطغيه بدهائه ويغريه حتى ارتد إلى دينه. . قال له. . أُطلب من السلطان أن يسمح لزوجتك بالدخول. . عسى يميل قلبها إلى الإسلام. . . وتُسْلم إسلاماً باطلاً. . . تقول أتمنى يا مولاي أن أكون مرتبة المائدة. .» (٢٤٩) فنلحظ جوان في هذا كله وسواساً ذاتياً يبلور لمرين خطة المؤامرة ودور زوجته فيها. وهنالك أيضاً المقطع الذي يواجه جوان فيه عرنوساً وهو خارج من ديوان الملك الظاهر بعد أن قتل وزير باش قران وتحدى الملك نفسه: «وخرج من القلعة، فاعترض طريقه رجل، وقال السلام عليك يا ملك عرنوس. أرأيت تقلبات الزمان، الذي أصله مملوك يهين الملوك. . إعلم أني أنا جوان، وكل الذي جرى في الديوان رأيته بعيني، ولو كنتَ تطيعني لجعلتَ ملوك الإفرنج تحت يدك وطوع أَمرك، ولكنتَ تنتقم من بيبرس أفظع انتقام. . .» (٢٥٧) فهنا يحس القارئ أو السامع أن ما يقوله جوان ليس سوى حديث عرنوس مع نفسه ـ نفسه الأمَّارة. . فالحقيقة التي تبرزها الرواية هي أن الصليبية روح حاقدة موسوسة، وأن الحروب الصليبية لن تنتهي إلاّ بالقضاء على تلك الروح.

وتلك هي المهمة التي يتصدى الملك الظاهر لها في مباراته الكبرى مع جوان. وتركز الرواية في مسايرتها لشخصية الملك الظاهر على مهمته، في طبيعة الحال، لكنها لا تغفل شخصيته. فهي تقر ضمناً بأن الظاهر ما كان ليستطيع أن يفعل ما فعل لو لم يرتق إلى موقع القيادة والمُلك. ومن هنا، فإنها تلطف من فظاظة سعيه للوصول إلى السلطة، إذ إنه في الواقع التاريخي أزاح من طريقه ملكين بالاغتيال، الأول توران شاه، الذي اتفق المماليك على قتله نظراً إلى إعراضه عنهم وإلى مجونه، فقتله بيبرس في أثناء وليمة استدرجه إليها، والثاني السلطان قطز، الذي اغتاله بيبرس وهو في طريق العودة إلى مصر بعد انتصاره العظيم على التتر والمغول في عين جالوت. فتُلقي الرواية شبهة ماكرة على اغتيال بيبرس لتوران شاه، ثم تبرِّئ ساحته. أمّا قطز فتزعم أنه وُجِد ميتاً في ساحة القتال بعد انجلاء معركة عين جالوت، وربما كان ذلك بسبب ما في هذا الاغتيال وتوقيته من هول وفظاعة.

لكن الرواية تعيد التوازن إلى الصورة من خلال حكايتها عن اغتيال بيبرس

نفسه على يد قلاوون. «وطلب السلطان من قلاوون أن يقسم له ويعاهده أن لا يخون به ولا بأولاده قط..» وخان العهد والإيمان.. «ودس له سماً في طعامه..» كان بيبرس في ذلك الوقت قد تخلى عن المُلك وفارق السلطة، وزهد في الدنيا، وذهب إلى مكة والمدينة حاجاً ومتزوداً لآخرته. وقد رأيناه عندما كان مقبلاً على الدنيا كيف لم يتورع عن الأمر بقتل ابنه السعيد حين شك في أنه دس السم له، وألحّ في تنفيذ الأمر. أمّا الآن، فإن دورة الأيام تتبدى في تغير واضح في معالم شخصيته؛ إذ حين يقول إبراهيم «ما سمَّه إلاّ قلاوون، فأقسم قلاوون أنه لم يفعل هذا... فقال السلطان لا تظلمه يا إبراهيم فإنه أقسم معي عند مقام الرسول أنه لا يغدرني ولا يخونني، لا أنا ولا أولادي.» (٣٤٣) لكن قلاوون خان أولاده كما خانه هو. وهذه المقابلة بين بيبرس «السلطان» وبيبرس «الإنسان» لا تتبدى إلاّ بعد انعتاق بيبرس من السلطة. ومن مظاهر الروعة الروائية أن إبراهيم ذاته، الذي كان بيبرس قد كلفه قتل ابنه فور وقوع الحادث، ولم يهدأ باله حتى خيل إليه أنه نفذ ما كُلف القيام به، هو الذي يقول بيبرس له لا «تظلمه يا إبراهيم..»

أمّا شخصية «السلطان» فتظهر لنا بجلاء فيما يظهره بيبرس في حروبه من جَلَد، وشجاعة، ومثابرة، وحسن قيادة. ونرى قدرته على اتخاذ القرار الصحيح حين يأمر جيشه بالانسحاب إلى حلب، بعد أن أُصيب بالحربة المسمومة، وبعد أن اشتد عليه ضغط الهجوم الصليبي الذي يقوده في ثاني حملاته، فيهيئ قواته من داخل المدينة وخارجها للهجوم المعاكس، ويحسن توقيت هذا الهجوم بناء على المعلومات الدقيقة التي زوده شيحة بها. ويظهر جانب المسؤولية من خلقه في إدارته للحرب وتيقظه الدائم لأي هجوم صليبي محتمل، وتحركه الفوري لمواجهة مثل هذا الهجوم أياً كان حجمه، وحسن توزيعه لجيوشه بين مختلف الجبهات، وحسن انتقاله من جبهة إلى جبهة، في تدرج مدروس ضمن خطة متكاملة. ويبدو لنا جانب آخر من عمله كرجل دولة مسؤول في تجاوبه مع أية بادرة للسلم أو لتحسين العلاقة، كما في تجاوبه مع باش قران بشأن فداء الملوك الثلاثة وجوان والبرتقش... ولئن بدا لنا في الظاهر أن باش قران قابل المودة بالمودة وأطلق الأسرى المسلمين المسخرين في بلاده، فإن المجزرة التي تعرض لها الأسرى والوفد الذي أرسله بيبرس من ملك الانجبار، تلقي على باش قران نفسه ظلاً من الشك... ولا تظهر الرواية هذا الشك فوراً بل تبرزه عندما يطلب باش قران للمرة الثانية أسرى احتجزهم عرنوس.. وعلى الرغم مما يبدو من جفاء وشكوك بين عرنوس وبيبرس، فإن عرنوس يبرر موقفه أمام وزير باش قران الذي ترأس الوفد بقوله «أنتم أرسلتم تطلبون أسراكم، فلماذا لم تذكروا أسرانا، والقتلى الذين قتلتموهم ظلماً وعدواناً» فيرد عليه الوزير بقوله «مليكي

قادر على أن يخلص الأسرى منك بالقوة. .» (٢٥٧) ويدير باش قران مباراته على أساس استغلال النفور بين عرنوس وبيبرس، وينجح نتيجة لتهور عرنوس ولخشية السلطان من أن يصبح عرنوس محور معارضة وانفصال. ويحقق باش قران هدفه بالتفريق بين الرجلين وجلب عرنوس إلى جانبه. وبعبارة أُخرى، فإن بادرة حسن النية التي أظهرها بيبرس بداية ولاحقاً كانت مطباً وقع فيه مرتين أمام باش قران، المتفوق عليه حقاً في مباريات المكر.

وتظهر لنا حكاية تعامله مع عرنوس تأرجحاً بين الأناة والصبر في معالجة الأمور القائمة، وبين التسرع إلى حد التهور في معالجة الأمور التي قد تمس عرشه أو سلطته. والمثال لهذا التهور أمْره بقتل ابنه حينما شك في أنه حاول اغتياله.

أمّا الجانب «الإنساني» من شخصيته فيتبدى في نضاله الطويل في الصعود من مملوك رقيق إلى ملك عظيم، وفي محاولته تغطية نسبه، وتقويم مسار ابنه ليصبح أهلاً لتولي الملك من بعده.

إذاً، إن جوان وبيبرس هما القطبان اللذان يشكلان المحور الكبير للصراع الإسلامي ـ الصليبي. وتنسل من خلال هذا الصراع قصة معروف ومريم وولدهما عرنوس، لتشكل حكاية من هذا الصراع، تتأرجح بين قطبيه، وتجعل من الرواية أدباً عظيماً وتعطيها مساراً أدبياً رائعاً ونهاية أدبية مأساوية لا مثيل لها. وسنعود إلى بعض التعليق عليها في موضع لاحق. لكننا ننتقل الآن إلى نظرة سريعة على الشخصيات المحيطة ببيبرس، والتي تشكل المحور الثاني من محاور الرواية.

إن أول من يظهر من هذه الشخصيات عثمان بن الحبلة، ولعله المصري الوحيد بين شخصيات الرواية. شقي يروضه بيبرس، ويفتح له أبواب الحياة الصالحة، ويعطيه منصباً رفيعاً كمعاون له. ويقبل عثمان على عمله بجد وإخلاص، فيُعرّف بيبرس بعالم الجريمة، ويساعده في معالجة هذا العالم بالترويض والقمع والحزم. ويضع خبرته في خدمة بيبرس بأمانة. . «وفي الليلة الثانية أراد بيبرس أن يركب ويدور في البلد، قال له عثمان لا تركب حتى تهدأ الحال وترى، وبعد ثلاث ليال قدم له عثمان الجواد. .» وعثمان هو الذي يكتشف وقوع بيبرس في المكيدة التي أعدها له جوان في الإسكندرية، و«صندقة» جوان له وشحنه إلى جنوا، وتمريره الصندوق في الميناء وهو متنكر بعد للمرة الأخيرة تحت ستار شخصية القاضي، وجلوسه وهو في زي القاضي فوق الصندوق إلى حين إقلاع السفينة. . . وقد كان اكتشاف عثمان المبكر حقيقة ما جرى هو السبب في إسراع الملك الصالح في الكتابة إلى ملك جنوا بطلب استعادة بيبرس. . . وآخر لقاء لنا مع الأسطى عثمان يتم في الديوان يوم جلوس بيبرس على العرش. . . «وإذا بعثمان بن الحبلة داخل. . .

وهو يقول، أنت لبّست كل الناس الرتب ولا تسأل عن أخيك عثمان، فقال له الملك أهلاً وسهلاً بالأسطى عثمان، ما تكرم جعلتك أمير. .» وبهذا التكريم ينتهي دوره وذكره. ولعله استمر قائماً بدور مهم في حفظ الأمن، لكن الرواية تنتقل الآن إلى مرحلة جديدة من مراحل سيرة بيبرس، وهي مرحلة القيادة العليا. وتقدم لنا في براعة أسلوبية شخصيات المرحلة التالية، مرحلة البطولة والأبطال، فتجلبهم إلى مسرح الاحتفال بجلوس بيبرس على العرش، وتذكر أسماءهم وتحدد وظائفهم. لكن لا بد في متابعة هذا المحور من أن نلقي بعض الضوء على شخصين مهمين، تذكرهما الرواية من دون أن تتوقف عندهما، على الرغم مما لهما من دور بارز. فالشخص الأول هو أيدمر البهلوان، وتكمن أهميته في أنه الفارس المملوكي الوحيد بين أبطال الرواية، وبالتالي فإن التعرف عليه يهيىء لنا فرصة التعرف على «الفارس المملوكي». أيدمر رجل شجاع يجيد الفروسية وجميع فنون القتال. صبور ومطيع، لا يبالي وقع الموت عليه أم على الموت وقع. يحسن المبارزة، ولا يهابها، ويخرج في معظم الأحيان بالغلبة فيها. لكنه في مبارزته مع عرنوس في حملته الأولى ضد بيبرس يخسر المبارزة «فبرز له أيدمر البهلوان، فتضاربا وتقاتلا، وتباعدا وتقاربا قدر ساعة، حتى تعب أيدمر فانقض عليه عرنوس واقتلعه من سرجه، وأخذه أسيراً.» وربما كان قد تقدم العمر به. وفي المعركة المفجعة مع ملك الانجبار، نراه يقاتل «وقد أُصيب. . بالجراحات، فجعل إبراهيم يحمسه ويشجعه على متابعة القتال، فصار أيدمر يقاتل على قدر استطاعته حتى سقط من على ظهر الجواد. . .» لا نكاد نسمع له حديثاً، وربما كان ذلك راجعاً إلى أن لغته الأصلية ليست اللغة العربية. لكنه يتحدث مرة واحدة، وتلك عندما ضرب عرنوس وزير باش قران بالسيف في ديوان بيبرس «فوقع رأسه في حضن أيدمر البهلوان وتلطخ وجهه وصدره بالدماء، فنهض بالحال وثيابه ملوثة بالدماء، وقال له ما هذه الفعال، إن الرسول لا يُقتل» فهو عارف بأصول التعامل بين الدول وبقواعد الفروسية.

والشخص الثاني هو الوزير شاهين ـ صانع الملك. ينتمي شاهين إلى عائلة عريقة (السلاجقة)، تمرست بالحكم وبالقتال ضد الصليبيين. هو ابن عثمان بك حاكم بورصة، الذي «كان له من الأولاد اثنين، الأول واسمه مسعود بك، والثاني واسمه شاهين. . . فبعد مدة توفي والدهم. . . فتقاسموا الاثنين ملك بورصة. . .» (١٩) وذات يوم باغت الفرنج بورصة بهجوم واسع، «فعند ذلك جمع الآغا شاهين أرباب دولته، وقال لهم لنركب في هذه الساعة ونكون ثلاث فرق ونحمل عليهم، ونصدمهم صدمة صادقة. . . ثم قال أنت مسعود بك تكون حافظاً لبورصة. . (وانتصر الآغا شاهين على الفرنج) فعند ذلك صاحت الكفار وطلبت

الأمان.. فلمّا سمع الآغا شاهين استغاثتهم أمر برفع السيف عنهم، بعدما أخذ أموالهم وذخائرهم وما تحويه أيديهم...»

(وعاد الآغا شاهين من المعركة، فخرج أخوه مسعود بك إلى ملاقاته، وسلم عليه وهنأه بالسلامة) «وجلس الآغا شاهين وإلى جانبه أخوه هذا، وقد تعجب الناس من فعال الآغا شاهين وحسدوه، وقيل إن الحسد يورث النكد..» (٢١) ومرض شاهين، وأيقن «بشرب كاس الردى، فلمّا كان يوم من الأيام وهو في أشد مرضه، إذ دخل عليه رجل وسلم عليه، وقال له، يا سيدي أنا أدلك على ما فيه الصلاح... واعلم يا سيدي... أن هواء بورصة لم يوافقك، ومناخها يضرك، وأنه لا يوافقك إلاّ هواء مصر ومناخها... فعند ذلك جهز نفسه وركب فيمن شاء من دولته وسار طالباً أرض مصر بعد أن أجلس أخاه مسعود بك على كرسي بورصة... وأقام إلى أن كان بعض الأيام.. فالتقى بموكب الملك الصالح أيوب فدخلوا المسجد وصلُّوا الجمعة، وبعد رجوعهم إلى الديوان أَجلس الملك الأمير شاهين بجانبه، وقال له هل تكون عندي وزيراً أعظم يا شاهين، تأخذ حق المظلوم ممن ظلمه وتحكم بالعدل والله عليك من الشاهدين، قال رضيت يا أمير المؤمنين.»

وبعبارة أُخرى، فإن منافسة دبت بين شاهين وأخيه مسعود، فآثر أن يترك الحكم لأخيه ويغادر بورصة بدلاً من منازعته. ولم يكن الملك الصالح جاهلاً هذه الحقيقة التي تدل على أن الرجل ليس طامعاً بملك أو أبهة، وأنه قد يفضل العمل الجاد الهادئ خلف الستار، على العمل الصارخ أمامه. وظل شاهين من جانبه على تلك الصفات طوال فترة وزارته الصعبة. وبدلاً من أن يسعى شاهين للمُلْك، وجد نفسه في مركز صانع الملوك.

يراقب الآغا شاهين مسيرة بيبرس منذ حداثته في إبان توليه مهمة الأمن الداخلي، ويتوسم الأهلية فيه وينشئ علاقة إنسانية به، ويساعده في صعوده الصعب من لحظة الوصول إلى السلطة وما بعد ذلك. وعندما تصل أخبار نزول الملك لويس التاسع ملك فرنسا في مصر ويسأل الملك من يكون قائد الجيش «قال له الوزير إبعث الآن الأمير بيبرس بالجيش وبعده تخرج أنت... ثم إن الملك ألبس بيبرس قائداً للجيش.»

في إثر وفاة الملك الصالح، يواجه الآغا شاهين أول مهمة كبيرة له: «وبعد مرور أربعين يوماً على وفاته جمع الوزير شاهين أرباب الدولة والوزراء، وقال ما رأيكم، ومن تريدون أن يجلس على كرسي السلطة، فطمع بعض الوزراء والأمراء وصار كل واحد يريدها لنفسه، فقالت الأمراء وأبناء عم السلطان لا ملك يكون إلاّ من نسل الملك، وإن السلطان الراحل له ولد في بلدة تكريت، يقال له عيسى توران

شاه فقال الوزير لنرسل إليه مكتوباً. . وإذ فيه. . أن أباك قد انتقل. . إلى رحمة الله وقد تقرر الحال على أنك تكون ملكاً علينا، وها نحن أرسلنا إليك لتحضر وتجلس على تخت والدك والسلام. .» (١٤٠ ـ ١٤١) ثم عندما اغتيل توران شاه، فإن بيبرس اتهمه أعداؤه بقتله، فقال الوزير شاهين «هاتوا بيِّنة عليه بذلك، قالوا نحن كنا مشغولين بالقتال ما رأيناه، ولكن هكذا سمعنا، فقال الوزير هاتوا خدام الملك. . . فبرأوا الأمير بيبرس. . . وجلس الآغا شاهين في الديوان. . . ثم تشاوروا فيمن سيكون سلطاناً عليهم قال أيبك للوزير أنا ولّيتك سلطاناً فاحكم بالعدل، قال الوزير هذا لا يكون أبداً. . . فوصل الخبر للست شجرة الدر، فأرسلت إليهم تقول، أنا أحق بالسلطنة. . . وأُقيم وكيلاً عني يحكم بالعدل، فقال الأكراد رضينا بذلك ورضي أيضاً الأتراك، وتسلطنت شجرة الدر. . . فلمّا سمع شريف مكة بذلك أرسل يلوم الوزراء في دولة الإسلام، وأن هذا تقليد الكفار. . . وسمعت بها شجرة الدر، قالت أنا تنازلت. . . فقالت العلماء اقترعوا، ثم كتبوا الأوراق بالقارعة وكل إنسان كتب اسمه في ورقة، ومد شاهين يده فسحب ورقة وتأملها، وإذ مكتوبة باسم أيبك، قال العلماء الآن صارت السلطنة حقاً له. . .» (١٤٣ ـ ١٤٤) نرى شاهين هنا مدركاً تماماً وظيفته وأصولها. فصانع الملوك لا يرضى أن يكون ملكاً، ولا يطمع بالملك. . .

ثم اغتالت شجرة الدر أيبك، ورأى ابنه أحمد شجرة الدر «وبيدها خنجر يقطر دماً وهي شبه عارية. . لحقها بالحسام فهرعت إلى أعلى السرايا. . فزلّت قدمها. . . فوقعت على رأسها وفارقت الحياة. . .» (١٤٨)

«وشاع الخبر بموت الاثنين. . . وكادت تقع الفتنة. . . فصاح الوزير شاهين قائلاً. . أنا أحقق بالأمر. . أمّا القضاة والوزير شاهين باشروا التحقيق، فما وجدوا لأحد يداً فيها. . . فأطلقوا سراح أحمد بن أيبك. . . ثم. . . بدأوا يتشاورون من يكون سلطاناً عليهم، فقال الأكراد. . . إن السلطان توران شاه له ولد اسمه علاء الدين وعمره سبع سنوات، فهو أحق بالـمُلك من غيره فوافقهم الوزير فجعلوه ملكاً. . . وأقاموا عنه وكيلاً بالسلطة. . .» (١٤٨ ـ ١٤٩) وهنا أيضاً، وللمرة الثانية، يتولى مهمة التحقيق للتوصل إلى نتيجة تتوافق مع أمن الدولة ويمرر حلاً موقتاً، كسباً للوقت ومنعاً للفتنة.

وعندما لاح خطر المغول وتقرر قتالهم، رأى أمراء المماليك أن يعيّن الأمير قطز قائداً للجيش، لكنه اشترط «أن أكون السلطان المنفذ لما يلزم. . . وأن تعزلوا هذا الملك الطفل وأوصياءه عن الحكم. . . قالوا رضينا بذلك. . . وأعطوا السلطة إلى الأمير قطز. . .» (١٥٠ ـ ١٥١) ونلحظ في هذه الحادثة غياب الوزير شاهين،

ويمكننا التكهن بأنه كان غياباً مقصوداً ومدروساً، فالقضية هنا هي قضية عزل سلطان كان هو قد ولاّه. لكنه يعود إلى الظهور بعد مقتل قطز وعودة بيبرس إلى مصر عقب معركة عين جالوت. . «وأمّا ما كان من الوزير شاهين فإنه صبر ثلاثة أيام. . . ثم أمر بالاجتماع في الديوان لبحث أمر هام، وبعد أن اجتمعت أرباب الدولة قال الوزير ما رأيكم، أشيروا علينا بمن نجعله سلطاناً، صار كل إنسان يبدي رأيه في هذا الشأن، إلى أن بت رأي الجميع على تنصيب بيبرس سلطاناً. .» (١٥٣) ولعل شاهين حين برأ بيبرس من تهمة اغتيال توران شاه، كان يتوقع اليوم الذي سيصبح بيبرس فيه سلطاناً، ويعده لذلك اليوم.

وليست مهمة اختيار الملك في خضم التيارات العنيفة وتسهيل وصوله بالمهمة الهينة. لكن يبدو لنا شاهين آغا متقناً لها، وربما كان همّه الأول تجنب الفتنة أكثر من اختيار الشخص الملائم، والأرجح أنه كان يعلم مدى الأخطار التي يتعرض لها هو شخصياً في أداء هذه المهمة. طبعاً، لقد حافظ على موقعه وزيراً لهؤلاء السلاطين المتعاقبين، وتظهره الرواية لنا رجلاً سلسلاً، وكفؤاً في أداء مهمته، وفي تنفيذ القرارات التي يتخذها السلطان. كما أنه صاحب دهاء كبير في التعامل مع الأحداث ومع السلطان. ونلمس دهاءه هذا بصورة خاصة عندما يتحدث عرنوس إلى السلطان بعد أن ينضم إلى المعسكر الإسلامي، قائلاً «أرجو أن ترسلني أنا وعساكري. . . لأفتح مدينة الرخام، وأجعلها مدينتي ومحل إقامتي أنا وعساكري، فقال الملك لك هذا. . .» (٢٣٤) ونلمح على الفور أن الملك لم يستشر الوزير شاهين قبل إعطاء هذه الموافقة، وأن الوزير لم يكن مرتاحاً لها، لما تحمله من أخطار، فيتدخل على الفور قائلاً «أيأمرني أمير المؤمنين أن أذهب أنا وعساكري مع الملك عرنوس. . . لأني من أهل تلك البلاد. . . فقال السلطان لا مانع من ذهابك مع عرنوس بهذه الغزوة. . .» (٢٣٤) ولعل قول شاهين «لأني من أهل تلك البلاد» أثار هاجساً في نفس بيبرس، وبالتالي فإنه استدعى شيحة جمال الدين، رجل ثقته المطلقة، وقال له «مرادي أن تلحق بهم وتساعدهم. . . قال جمال الدين لا تكون لك فكرة يا أمير المؤمنين. .» (٢٣٥) إن هذا التوالي في الأحداث يشكل روعة أسلوبية، لأنه يهيئ للأحداث الخطرة التي تنجم عن تولية عرنوس على مدينة الرخام، ويبدأ تَدَافُع الأمور نحو المأساة النهائية. كذلك نلمس حضوره عقب اكتشاف الجناة الحقيقيين في قضية تسمم الملك الظاهر، وحزن الملك على مقتل ابنه بأمر خطي منه. فيقول شاهين لإبراهيم «الحق عليك يا إبراهيم كان يجب أن تحقن دم السعيد. . . إلى أن تظهر براءته. عند ذلك تأتي بابن الملك حياً يرزق وتنال الإكرام والإنعام الجزيل من الملك والوزراء.» (٢٥٤) فهذا إيحاء بأنه هو الذي

رتب مسألة التظاهر بقتل السعيد، وهو يعطي الإشارة لإبراهيم لإظهار حقيقة ما جرى وتحصيل الثمرات.

ولقد سبق لنا الحديث عن شخصية أمير البحار أبي علي البطرلي. ولا بد الآن من بعض الملاحظات على شخصية إبراهيم بن حسن الحوراني. فهذا الرجل يبدو فارساً شجاعاً، مقداماً، وسفيراً أميناً ومؤتمناً. لكنه رجل ظِلّ يجود ويجيد عندما ينفذ أوامر وتعليمات يتلقاها، وقلما يرقى إلى مستوى القدرة على اتخاذ القرار الصائب. ويتحلى ضعفه هذا في مأساة أسرى المسلمين لدى ملك رومة المدائن. فهو عندما يعلم بوجود هؤلاء الأسرى يطالب بهم على الفور، «إننا لن نخرج من رومة المدائن وبها أسير إلاّ ويعود معي حالاً. . .» وهذا قرار صائب، لأنه ينجح في جمع الأسارى من كل مكان. . لكنه يتخذ قراراً مغلوطاً فيه عندما يطلب أن يعود عن طريق البر، «لأن البحر صعب الركوب في الشتاء دائماً هائج ومتلاطم بالأمواج. .» فهذا الأمر لا يدخل في اختصاصه، بل في اختصاص أمير البحار أبي علي البطرلي. ثم إنه لا يدرك مدى الخطر الكامن في ترحيل ستة آلاف أسير عزَّل من السلاح في أراضي يسيطر الصليبيون عليها، وكأنه جاهل غدرهم ومكرهم وقسوتهم، ولا يدرك كوامن باش قران، التي تجلت فيما بعد، ويضع فيه ثقة في غير محلها. وتقع كارثة كبرى، يباد فيها الأسرى عن آخرهم.

كذلك نراه في المعركة الأولى مع عرنوس يتخبط في سلوكه، فعندما يطلب من السلطان أن يسمح له غداً بالنزول إلى الميدان لمبارزة عرنوس، يقول السلطان له «مقامك محفوظ عندي يا إبراهيم لمقاتلة الأبطال والمعارك الكبرى»، وذلك أعلى قدر من الثقة ومن حسن الظن. لكن عندما يقول له الملك «جاء دورك فانزل غداً لعرنوس» يتجنب إبراهيم المبارزة استجابة لطلب معروف والد عرنوس ـ وعندما يسأله الملك عن سبب نكوله يعده بأن يأتيه به في الغد أسيراً مهاناً، ولا يفعل. ويغضب السلطان، ويقول «غداً أنا أبرز إلى الميدان.» ففي هذه الحادثة، نرى إبراهيم ضعيفاً أمام عواطف القربى (معروف خاله)، والحمية الطائفية (كلاهما من الإسماعيلية). لكن السلطان لا يرى في ذلك ثغرة في ولاء إبراهيم، الذي يظل مرافقاً أميناً له حتى لحظة وفاته. أمّا سعد ابن خالة إبراهيم، الرجل الثاني في ثنائي إبراهيم وسعد، فهو رجل يتلقى الأوامر ويطيعها وينفذها، لكنه حريص على صورته وسمعته بطلاً ورجلاً شجاعاً. فعندما يقول إبراهيم له في أثناء المعركة/المجزرة مع ملك الانجبار «إذهب إلى الأوطان وقل لمليكنا الظاهر أن يأتي بالجيوش ويأخذ لنا بالثأر»، يقول له سعد «أنا إنْ وصلت إلى السلطان يقتلني لفراري من المعركة والميدان»، لكن عندما يلح سعد عليه في تنفيذ أمره ويقول له «فما أنت إلاّ بطل

شجاع..» فإنه ينفذ الأمر ويؤدي المهمة. أمّا قراره الصائب بالتحايل على أمر السلطان له بإعدام السعيد ابنه، فقد أشرنا إلى ما تومئ الرواية إليه من يد للوزير شاهين في هذا القرار.

ونأتي بعد هذا العرض إلى البطل الأهم والأعم والأوسع بينهم جميعاً، شيحة جمال الدين. يظهر شيحة أول ما يظهر في الرواية بصورة مفاجئة، ومن دون تمهيد، كإنسان عُيّن في منصب رفيع، من دون تقديم أية معلومات عن صفاته أو تجاربه أو مواهبه. «ثم إن الملك بعث مكاتبات إلى مقدمي الحصون والقلاع بالحضور إليه بدون إمهال فحضروا بالحال، فأمّر عليهم أميراً يقال له شيحة ويكنّى بجمال الدين، وجعله سلطان القلاع والحصون، وقال لهم هذا أمير عليكم إلى أن يظهر ويرجع سلطانكم المقدم معروف بن جمر، فقالوا بالإجماع سمعاً وطاعة.» (١٥٣) ولا بد من أن الملك كان يعرف الكثير عن هذا الرجل، وإلاّ لما اختاره لهذا المنصب الكبير والخطر والحساس. لكنه لأمر ما فضّل ألاّ يقول شيئاً عنه، فترك بذلك لهم فراغات كثيرة تملؤها أحداث الرواية ذاتها. فبالنسبة إليه هو كأنه قال لشيحة إن كنت جديراً بهذه الثقة التي وضعتها فيك، فاثبت جدارتك. وتظهر الرواية أن شيحة وجد نفسه تحت الاختبار المستمر، واكتشف أن إثبات الجدارة مسألة لها بداية وليس لها نهاية، وأنها قضية كل يوم وكل ساعة. ومن هنا، فإن سجله هو سجل تحد مستمر لجدارته بالمنصب، وتحرك مستمر من جانبه لتثبيت قدميه فيه. أمّا بالنسبة إلى المقدمين، فكأن السلطان قال لهم إنْ لم يرق لكم هذا التعيين، فأمامكم وسيلة شرعية واحدة لإنهائه وتلك هي عودة معروف بن جمر، لأن التعيين موقت ومرهون بتلك العودة. وكان معروف قد اختفى حين قبض كنيار ملك القطلان عليه وأودعه السجن، لكن المقدمين لم يكونوا يعرفون مكان وجوده. وبهذه الوسيلة استطاع الملك أن يشغل المقدمين الناقمين بالتفتيش عن معروف زمناً. وتتحدث الرواية عن استمرار غياب معروف، واستمرار التفتيش عليه ضمناً، حيث أن كل متمرد على شيحة يوصف بأنه عاد من التفتيش عن معروف الغائب ليسأل إن كان معروف قد ظهر في أثناء غيابه، فحينما لا يجده، يطالب لنفسه بالسلطة بدلاً من شيحة. ويؤمّن السلطان بذلك غياب هؤلاء المقدمين عن قلاعهم في فترة حرجة يتمكن شيحة خلالها من تثبيت قدميه. ثم إنهم عندما يعودون لا يعودون في وقت واحد، نظراً إلى أنهم توزعوا في عملية التفتيش طرقاً وأماكن مختلفة، فلا يتكاتفون في ثورة شاملة، وإنما يقومون بأعمال تمرد انفرادية ومتواصلة. ليس صعباً أن نستنتج، بعد ما نزداد تعرفاً بشخصية شيحة ونشهد وقائعه وأعماله، أنه هو واضع هذه الخطة التي نالت موافقة السلطان فأقدم على تنفيذها.

فأول هؤلاء المتمردين المقدم فخر الدين حسن وهو «من الرجال الذين ذهبوا للتفتيش عن معروف بن جمر، فلمّا وصل إلى قلعته واستقر به الجلوس ودارت حواليه رجاله، سأل عن القلاع ومن السلطان عليها. وهل معروف ظهر أم لا، فقالوا له قد تسلطن على القلاع رجل من عرب غزة يقال له شيحة بن سيف القبائل، وأمّا معروف فلم يظهر. . .» (١٦٠) وهنا نعرف أول مرة أن شيحة من عرب غزة، ثم يأتي دور النسر بن عجبور في التمرد، نراه يسأل ابن أخته «دخلت القلاع، قال نعم، فقال له هل ظهر المقدم معروف، قال لا يا خال، ولكن قد تسلطن على القلاع واحد من غير بني إسماعيل. . اسمه جمال الدين. . قال هذا معزول، قالوا إفعل ما بدا لك، فإنْ قدرت عليه أطعناك وإنْ هو غلبك فنحن على ما نحن عليه من إطاعة الرجل. . ثم التفت إلى ابن أخته، فقال هل رأيت شيحة أم لا، قال رأيته يا خال، قال كيف شكله، قال هو قصير، ملموم، ونشيط كثير الحركة ويتبدل مئة لون ولون. .» (١٧٠) هنا مزيد من التعريف به، فهو سلطان على بني إسماعيل لكنه ليس منهم، ثم إنه سجَّل لنفسه مهابة تجعل الخروج عليه أمراً يحسن التريث فيه. ونتعرف الآن على بعض صفاته، وأهمها النشاط وكثرة الحركة والقدرة على التلون. يأتي هذا الوصف بعد الذي أظهره شيحة من كفاءة مذهلة في اقتحام العريش وعسقلان ويافا، من خلال سلسلة من المغامرات الذكية والجريئة، وبعد ما استمال فخر الدين إلى صفه.

ثم يأتي دور حسن المشناتي، فإنه «لمّا فتش عن معروف ولم يجده، شَكَت نفسه من الغربة فعاد. . . إلى أن أتى قلعته. . . فرأى في صدر القاعة مكتوباً سلطان القلاع والحصون شيحة. . . وسأل. . . فأخبروه بالمقدم جمال الدين شيحة. . . وقال شيحة مقتول، والظاهر معزول. . . قالوا له ما أنت أعظم من حسن النسر وغيره الذين قدَّموا الطاعة، وما قدروا يطلعوا رأس مع جمال الدين. .» (١٧٣) ثم يأتي دور منصور العقاب «وكان من المفتشين عن المقدم معروف. . . سأل عن المقدم معروف ظهر أم لا، وعن السلطنة، فقالوا له أمّا المقدم معروف فقد ظهر (وكان هذا بعد عملية إنقاذه). . وأمّا السلطنة. . . فتنازل المقدم معروف عنها لشيحة. . فقال لهم ومن يكون هذا شيحة من الرجال، قالوا له هذا رجل من عرب غزة. . .» (٢٤٠) فهنا نلمس أن عبارة من عرب غزة أصبحت ذات رنين يكفي جواباً لسؤال: من هو من الرجال؟

أخيراً يأتي دور المقدم سعد الدين الرصافي الذي «عاد من التفتيش وسأل. . فقالوا له إن المقدم معروف ظهر واستشهد على باب أنطاكية بحلب، فقال من هو سلطان القلاع والحصون، قالوا له رجل من عرب خان يونس اسمه شيحة جمال

الدين، فقال وهل يقابل شيحة في الحرب ألفاً أو ألفين من الفرسان، فقالوا له هذا لا ينزل إلى ميدان ولا يقاتل أحداً، ولكنه يحتال على أخصامه ويغلبهم بدهائه وشطارته، فقال إن هذا المنصب لا يؤخذ بالحيل والألاعيب بل يؤخذ بالفروسية والشجاعة والبطولة. . . وتم الاتفاق بين المقدمين من بني إسماعيل أنْ يدخلوا على المقدم سعد الدين الرصافي، وينصحوه أن يطيع جمال الدين شيحة. . . قال لهم أُريد منكم أن تساعدوني وتعلنوا العصيان مثلي، فنقتل شيحة فندموا على دخولهم القلعة وعلى مواجهته، ولم يجيبوه بشيء، فقال. . هل أخافكم شيحة. . . أم خفتم على رواتبكم. . فقالوا ما خفنا على شيء ولكن كل منا جرب نفسه مع جمال الدين فما قدرنا عليه، والآن جئنا. . . ننصحك أن تطيع جمال الدين. . . إن شيحة محظوظ ومسعود، وإذا ساعدناك وقمنا ضده أهلكنا جميعاً، وخسرنا مركزنا، فلا تغتر بنفسك لأنك لم تر شيئاً من أفعاله. . .» (٢٨٠ ـ ٢٨١) لقد أصبح شيحة أسطورة، واكتسب سمعة أنه لا يُهزم أبداً، محظوظ، مسعود، من قام ضده مغرور، سوف يهلك ويخسر مركزه. وإن التدرج في إضافة الصفات إلى شيحة بتدرج القصة، وبتعاقب الانتصارات التي يحققها بالدهاء والحيلة، لهو أيضاً من المآثر الأسلوبية للرواية.

ويقبل سعد الدين الرصافي النصيحة، فلا يعلن تمرداً، بل يذهب هو ومؤيدوه من بني إسماعيل إلى مصر طالبين من «مولانا السلطان أن ينصفه مع جمال الدين شيحة، من جهة السلطنة على القلاع.» وفي هذا ما فيه انتهاء لمحاولات التمرد ورجوع إلى السلطان، بوصفه صاحب السلطة العليا والقرار النهائي.

«فقال الظاهر، ما تقول يا جمال الدين، قال شيحة يلزم على المقدم سعد الدين أن يقدم لنا برهاناً على. . . أنه أهل. . وأن السلطنة لها مهر، فقال سعد الدين وما مهرها، فقال شيحة يوجد في خزائن ميخائيل ملك القسطنطينية طير ناعق وسيف زاعق، فإذا أتيت بهما تكون أنت سلطان القلاع وأنا معزول، وإنْ أنا أتيت بهما تطيعني. . . فقال الرجال راحت السلطنة من يد شيحة، فقال سعد الدين يمكن يعرقل لي أعمالي، فقال شيحة أنا لا أسافر من مصر إلاّ بعد ثلاثين يوماً من سفرك، وإذا رأيتك لن أتخلى عنك، وإني أساعدك بما ينجح مسعاك. .» (٢٨٠) هذه أول مرة نرى فيها شيحة متحدثاً عن نفسه، وما قال شيئاً إلاّ وكان قد فعله من قبل من دون قول ولا شرح ولا تفسير. فهو قد وقف إلى جانب فخر الدين، وأكرمه فأعطاه الجائزة التي كان يطمح إليها. وهو كان قد دخل في مباراة محكمة مع عماد الدين لإنقاذ معروف أراه فيها فعل الرجال. وما زال على ثقته بنفسه وبكفاءته وبقدرته على الامتياز والتفوق، في إطار من الالتزام الخلقي والشهامة وإعطاء المنافس هامش تقدم في

البداية، حتى لا يبقى شك في النتيجة. وربح تلك المباراة كما ربح غيرها من قبل.

ولعل الراوي رسم شيحة كشخصية موازية لشخصية جوان. فهو يمثل ويظهر ويختفي، ويصل إلى المكان المناسب في اللحظة الحرجة، ليؤدي عملاً أو ليمنع عملاً. وهو مثل جوان يخطط بدهاء، وينتقل من مكان إلى مكان. لكن الشبه ينتهي هنا؛ فلئن كان جوان طيفاً، فإن شيحة إنسان حقيقي، ولئن كان جوان روح حقد وكراهية وتأليب وتحريض، فإن شيحة رجل شهامة ومروءة ومبادئ، ورجل عمل واقتدار وكفاءة، ورجل حيلة واسعة ومثابرة صابرة. ولئن كان جوان طيفاً فإن شيحة نموذج أزلي، لا لعرب خان يونس وغزة فحسب، بل أيضاً لعرب فلسطين كلهم.

شيحة هو العقل الخفي وراء بيبرس، وهو في الوقت ذاته يده اليمنى، ويده اليسرى. رفيقه في كل حملاته، يأتيه بالأخبار والمعلومات قبل المعركة وفي أثنائها، ويتلمس ثغرات الضعف لدى العدو ويخترقها، ويحدد ساعة الهجوم، ويؤمن عناصر الانتصار. يفعل كل ذلك في صمت، ومن دون تبجح، ويقنع من الغنيمة بالنصر. وعلى الرغم من شجاعته الخارقة وانتصاراته العظيمة، نراه لا يتحدث عن نفسه إلاّ في إطار مباراة يخوضها: «تعال معي لأُريك فعل الرجال...»، «فإذا أتيت بهما تكون أنت سلطان القلاع وأنا معزول، وإنْ أنا أتيت بهما تطيعني..» رجل يعرف كيف يكسب الرجال، وكيف يقنع الرجال، وكيف يروض الرجال.

ويمثل شيحة روحاً في غاية النبل، تعلو شامخة فوق الأحقاد التي فجرتها الحروب الصليبية. وهو النقيض لما يدعو جوان إليه. إذ بينما جوان يدعو في كل مناسبة، لا إلى الحرب وحدها، بل إلى القتل أيضاً: «قال جوان هاتوا بيبرس (بعد أن استخرجه من الصندوق الذي نُقل فيه إلى جنوا)... وقال لبيبرس، الآن قد بلغت مرادي منك، وقد وقف السياف عند رأسه منتظر الإشارة، ونهض وزير وقال للملك، أمهل هذا الشاب لا تقتله الآن، بل انتظر ما تأتي به الأيام...» (١٣٨)

أمّا شيحة فإن نصيحته هي عكس ذلك: «وسلّمه الثلاثة ملوك وجوان والبرتقش، وأمر الملك بضرب رقابهم فمنعه شيحة من ذلك، وقال يا أمير المؤمنين، إبقهم وكل شيء له أوان...» (١٦٢) فنلاحظ استعمال الراوي كلمة «منعه» بدلاً من كلمة أشار عليه مثلاً، وهو ما يعكس أهمية الامتناع من قتلهم في نظر شيحة، وثقة بيبرس المطلقة بحكمه.

كذلك نلاحظ المناقضة الهائلة بين موقف جوان وموقف شيحة من حكاية الأسرى ومجزرة الانجبار. فالملك الظاهر يفرج عن جوان والبرتقش والملوك الثلاثة، ويقبل فدية الملك باش قران لهم. ويقول الظاهر في رسالته إلى باش قران «كما وقع بأيدينا جوان وغلامه مرات عديدة ونحن نعفو عنه...» فكيف يقابل جوان

هذه الروح السمحة المتسامحة. يتجسس على الوفد المرسل إلى باش قران، ويعرف بتجميع الأسرى المسلمين من أجل تسفيرهم، فيقول للبرتقش، «هيا بنا لنأخذ أمتعتنا ونذهب قدامهم لنرى ما نفعل بهم... وصار كلما وصل إلى ملك من الملوك يطلب منه الاعتداء على إبراهيم وجماعته الأسرى... فلمّا وصل جوان مدينة الانجبار دخل على الملك وقال له... قم حالاً واجمع عساكرك، وخذ هذه الغنيمة والمال... فقال له وأين الغنيمة ومن يحرسها، فقال... مع إبراهيم الحوراني... ومعه أسارى... فقم لهم، واقتلهم وخذ المال والنوال..» (١٨٤) وتقع المجزرة.

وعندما يصل الخبر إلى الملك الظاهر يُقْسم في الديوان، وأمام رجاله: «لا بد أن أُخرب الانجبار وأجعلها ينعق فيها البوم والغراب...» (١٨٧) وينظم حملة لمحاربتها. ويصل إلى مقربة من المدينة «فإذا بشيحة جمال الدين مقبل.. ثم إن الملك قال، ما وراءك من الأخبار يا سلطان الرجال، قال أُبشرنا... بأخيك المقدم إبراهيم أنه والحمد لله بخير ومشرف على العافية، كما أن الأمير أيدمر بخير... فقال الملك وأين هما الآن، فقال في داخل المدينة، أمّا المقدم إبراهيم فهو تحت عنايتي، وأمّا أيدمر فإني اكتشفت أمره، فوجدته عند وزير الملك وامرأته، وقد اعتنيا به كثيراً، حتى إذا وقعوا بين يديك.. يفتدون أنفسهم..» (١٩٠) يلطِّف الجو، ويسجِّل لصاحب الفضل من الأعداء فضله، ويستبق الأمور لئلا يتسرع الملك فيعاقب من يستحق الثواب. وعندما فتح الملك الظاهر المدينة و«أراد إخراج رعايا المدينة لأجل خرابها، فقال له شيحة الأصوب... أن تتركها عامرة... وكفاهم ما نالهم من العذاب، والذين قاموا بهذا العدوان لاقوا جزاءهم، وليس على الرعية حق، والمسؤولية تقع على الراعي...» (١٩١) أي موقف يمكن أن يكون أعظم من هذا الموقف، وأي قول أفضل من هذا القول. ثم إنه، عندما كلَّفه الملك إعادة تنظيم البلد، «جمع أعيان البلد، وقال انتخبوا منكم رجلاً يكون حاكم البلد...» (١٩١) سلطان الرجال هذا، رجل عظيم يؤمن بما نسميه هذه الأيام «حقوق الإنسان»، ويؤمن بالانتخاب، أو الديمقراطية، أسلوباً في الحكم. ويؤمن بهذا وذاك في موقف الاقتدار. أين هذا من روح جوان المطالبة بتدمير بلد بأكمله، وتجويع شعب بحاله، حتى في أيامنا هذه.

ونرى من سيرة سلطان الرجال أن له معياراً واحداً في السلوك، ولو شئنا استعمال مصطلح هذه الأيام، لقلنا: كان شيحة بالنسبة إلى الملك الظاهر، رئيس الأركان، ورئيس الاستخبارات، وضابط العمليات، وقائد القوات الخاصة، ورجل العمليات الخاصة.

لقد خاض بيبرس نضالين في آن واحد: نضالاً ضد العدو الخارجي، يهدف

إلى إلحاق الهزيمة به واستعادة الأرض منه، ونضالاً ضد التمرد الإسماعيلي، المتواطئ مع العدو أحياناً. ولئن جاءت الرواية متوازنة بشأن التمرد الإسماعيلي، حيث نرى الفداوية يقاتلون في الصف الإسلامي على الرغم من ردة أو تواطؤ هنا أو هناك، فالفضل في ذلك يعود إلى شيحة، الذي كان حازماً في معالجة التمرد، وليناً في العمل الدائب لاستمالته. لم يكن تعامله مع الإسماعيلية تعامل من يريد تسجيل انتصار عليهم، أو من يريد إلحاق أذى بهم، وإنما تعامل من يريد جلبهم إلى الصف الإسلامي أو إرغامهم عليه.

إن الثقة بينه وبين بيبرس متبادلة، وولاءه للملك ولاء مطلق. ذلك بأنه يعرف أنه يخوض إلى جانب بيبرس معركة الإسلام. بيبرس هو القائد، وشيحة جندي مخلص متفان. رجل عظيم في خدمة ملك عظيم. ويلخص مشهد موته المعاني كلها التي أراد أن يضمنها حياته. عندما رآه بيبرس مريضاً مرض الموت «تذكر أيامه الماضية... وإخلاصه في الجهاد في سبيل الله، وإخلاصه للسلطان وللدولة.» ولا يبقى لديه في تلك اللحظة سوى أمنية واحدة يتوجه بها إلى السلطان قائلاً «فأرجو أن تنتظر قليلاً عندي حتى تخرج روحي بين يديك، فتشهد لي بأن متُّ مسلماً مؤمناً بالله وبرسوله...» (٣٤٠) فإن بيبرس في نظره بطل الإسلام، ورمز نضاله وجهاده. وليس له من أمنية، على الرغم من أعماله الكبيرة، سوى رفع راية الإسلام، والموت تحتها.

وقفة عند الشخصيات النسائية للرواية

إن أولى الشخصيات النسائية المهمة بالنسبة إلى الرواية هي فاطمة الأقواسية وزوجة أخيها وسيلة. وتشكل كل منهما المقابل للأخرى، كما تمثل كل منهما نموذجاً حقيقياً من نماذج المرأة في البيت الشرقي، بل المرأة عامة. فوسيلة امرأة نكدة «كانت أشقى أهل الأرض، فلمّا طرق (زوجها) الباب، قالت من بالباب، قال افتحي قد أتيتك بغلام، فلمّا دخل محمود عليها تأملته، وقالت له من أنت، قال لها أنا مملوك يا سيدتي، فقالت له تشرفنا، وصارت تستخدمه وتظلمه، فهرب منها إلى أن خرج من الشام إلى الجبانة...» ثم لمّا لم يجد مأوى «رأى أحد جيران عبده الأقواسي... وقال له أنا في جيرتك تصالحني مع سيدي... فقال له المتشفع أكرمه إكراماً إلى الله، قال له لك عليّ ذلك، ثم سار به حتى أوصله إلى البيت، ثم صاح لزوجته، وقال خذي هذا المملوك وعذبيه، فنهضت، وأخذته، وبعاجل الحال كتفته، وفي عامود ربطته، ثم إنها أوقدت النار، وأخرجت حطبة من النار مشتعلة،

وأرادت أن تضربه وهو يستغيث ويستجير. . .» ودخلت أخت عبده الأقواسي مصادفة فوجدت الغلام يستغيث فلا يغاث، فلمّا رآها محمود صاح بأعلى صوته «أنا في جيرتك يا سيدتي، فقالت له لا تخف يا بني، ثم أقبلت إلى وسيلة، وقالت لها إعفي عن هذا الغلام لأجل خاطري، فقالت لها لا أقبله ولا أُكرمه ولو اجتمعت عليّ الدنيا وأهلها، وأنت ما دخلك في أموري، فلمّا سمعت منها السيدة فاطمة الأقواسية غضبت، وقالت لها، يا ظالمة تقابليني بمثل هذا الكلام، ثم إنها هجمت على محمود وخلصته مما هو فيه، وأخذته في يدها وسارت إلى بيتها وهي غاضبة في نفسها. .» (٤١ ـ ٤٢)

صورة واقعية لشخصية نسائية قاسية، نكدة، تزخر الحياة بأمثالها، وصورة حقيقية أُخرى لخصام ونكد بيتي يجري في إطار عائلة متسعة، يتدخل كل واحد من أفرادها بأمور الآخرين كلها «وأنت ما دخلِك في أموري.» والمشهد كله، على الرغم من قصره، من الأدب الواقعي المؤثر الذي نجد مشاهد أُخرى كثيرة منه في الرواية.

أمّا فاطمة الأقواسية فإنها شخصية بين النموذج والواقع؛ فهي صورة رائعة عن شخصية المرأة. أمٌ بالمعنى الواسع. محمود ليس ابنها، لكن لديها عاطفة أمومة زاخرة، تنصب كلها مرة واحدة على محمود في عمق وعنف بالغين. «وكانت السيدة فاطمة لها ولد اسمه بيبرس، فتوفاه الله فانكسر قلبها لأجله، فمنّ الله عليها بهذا الغلام، وحنّن قلبها عليه، وكان محمود أشبه الناس بولدها بيبرس. . . فقال أنا لها خادم، ثم إنه قام وقبَّل يد السيدة فاطمة ورأسها، وسمّته بيبرس على اسم ولدها. .» (٤٢) وتتجلى أمومتها الزاخرة في التعاطف مع ولد مظلوم معذب، فترى فيه ولدها، وتفعل ما كانت تفعله لو كان ولدها فعلاً، وتعطيه على الفور ما عندها «جميع مالي ونوالي وما تملكه يدي مُلك لهذا الغلام»، وتأخذ معطائيتها شكلاً معنوياً ومادياً «وإذا توفاني الله وأخرجني بقطعة قماش، يكون فضلاً منه، لأنني اتخذته ولدي.» (٤٢) تلك هي الأُم النموذج.. ثم إنها ترعاه وتلبّي له ما يطلب وما يتمنى. ويدخل هو من جانبه في صراع مع نائب دمشق الناصر بسبب رعايته لمصالح فاطمة، فتؤازره، وتستدعي الإسماعيلية لإنقاذه من سجن عيسى الناصر.

وعندما يحضر وزير الملك الصالح نجم الدين البندقداري، زوج أخت السيدة فاطمة الأقواسي، لتسلُّم خراج الشام، ويناشده عيسى الناصر أن يخلصه من المتاعب التي سببها بيبرس له، فإنه يشجع بيبرس على ترك الشام إلى مصر، فيقتنع ويقول لفاطمة «مرادي أن أسافر مع زوج خالتي الوزير الصالح نجم الدين البندقداري. . . وأعود بعد ذلك. . .» فتحزن إذ تدرك بأنه سيمضي هناك في طريق الصعود، ولن يعود، «فلمّا تحققت ذلك منه بكت وقامت. . . ثم رجعت لبيبرس، وقالت له إذا

كان لا بد لك من الرواح، فخذ جميع الملابس، وخذ المال... وإني أسأل رب الأنام أن يريني وجهك وأنت تحكم عساكر تملأ البطاح... ثم قالت لبيبرس إذا لم ترق لك الإقامة يا بني فارجع إلى عندي... ثم إنها جمعت الأموال التي عندها والأسلحة في صناديق... فشكرها بيبرس على فعالها...» (٥٩ ـ ٦٠)

وعندما كُلف بيبرس أول مهمة حربية، على رأس قوة لتأديب ملك العريش ومساندة أهل حلب ضد غزوة تترية، مرّ في دمشق «فلمّا صار خبر لعيسى الناصر... انجبر أن يستقبله، وفي قلبه نار الحقد والحسد، ولكنه سلم عليه ودعا له بالنصر والتوفيق، ووصل الخبر إلى أمه فاطمة الأقواسية فخرجت لملاقاته، فاستقبلها الأمير وقبّل يدها ورأسها، فعانقته وصارت تبكي من شدة الفرح... إلى أن قالت له إعلم يا ولدي أن الله تعالى استجاب دعائي، وذلك لمّا سرت من عندي... قلت يا رب... لا تدعني أراه إلاّ وهو قائد عسكر يحكم على خمسين ألف وأكثر، فقبّل يدها، ثم ودعها بعد ذلك، ورجعت إلى محلها...» (١١٤) لقد أثمرت رعاية فاطمة وعنايتها، وأصبح الرجل الذي أولته محبتها، وأحاطته بأمومتها، نجماً صاعداً، في الدفاع عن الحياض وخدمة الدولة الإسلامية، وبوداعه لها في هذا المشهد، يودع الراوي فاطمة الأقواسية، إلاّ من اختلاط داخله بينها وبين شجرة الدر.

وشجرة الدر هي الشخصية النسائية الثانية التي تتناولها الرواية. فأول ما نسمع عن امرأة بهذا الاسم حينما يدخل أربعة رجال ديوان الملك الصالح... «فقالوا يا أمير المؤمنين، إننا رسل السيدة فاطمة شجرة الدر بنت الخليفة (العباسي) المقتدر بالله، وقد أمرتنا أن نقول لكم الأرض أرضها، ومصر مصرها، وهي لها الحق أن تولي من تريد... فلمّا رآه الوزير (شاهين) قال... إن ما ذكره الرسل فهو حق، ولا سيما وقد ورثت الأرض عن أبيها...» (٢٢) ذهب الآغا شاهين لزيارتها، واعتذر لها عن التقصير بالتأخر في ملاقاتها نظراً إلى عدم ورود الأخبار عن وصولها إلاّ بالأمس، ودعاها باسم الملك، «وكل ما أمرت به مطاع.»

«وعلم الملك الصالح بمجيئها، ثم تهيأ إلى لقائها، ثم قام وسلم عليها، فردت عليه السلام وطاب بينهما الكلام... أوقع الله حبه في قلبها... أمّا الملك الصالح فقد أحب هذه السيدة، وطلب إلى الوزير شاهين أن يخطبها له.. فقال يا سيدتي ما على الرسول إلاّ البلاغ. إن الملك يريد أن يتشرف بقربك ويحظى بطلعتك. فلمّا سمعت السيدة فاطمة ذلك الكلام تبسمت، وقالت له قضى الله وساطتك... وأنت وكيلي..» (٢٤) «ثم إن الملك أمر بتجهيز الولائم وحضرت الوزراء والأمراء وأرباب الدولة والقاضي (السابق لجوان في القضاء)، ونهض الملك

الصالح وقعد أمام شيخ الإسلام، وقال له يا مولاي إعلم أن السيدة فاطمة بنت المقتدر بالله، قد أقبلت تريد الحج... فطلبتها للزواج، فأجابت بالقبول فاسألوها، فقام شيخ الإسلام ومعه اثنان ووقفوا خلف الستار... خبرته بأن الوزير شاهين وكيلها في كل الأمور.. ثم استأذنت برواحها إلى الحج... ثم جعلت الآغا شاهين أمير الحج... وقضت الفريضة.. ثم عادوا راجعين إلى مصر.. وطلعت الملكة إلى السرايا...» (٢٥)

ثم إن الملك الصالح مات ودعي ابنه عيسى توران شاه إلى الجلوس على كرسي السلطنة، وعندما مات توران شاه «تشاوروا... فاختلفوا... فوصل الخبر للست شجرة الدر... فأرسلت إليهم تقول أنا أحق بالسلطنة ومعي حجج بذلك... وتسلطنت...» (١٤٤) لكنها قالت أمام تصاعد المعارضة لها «أنا تنازلت»... «فجرت القرعة، ونصب أيبك سلطاناً. أمّا السلطان أيبك التركماني، فقد أشار عليه بعض محبيه أن يخطب الملكة شجرة الدر ويتزوجها، فيصير أقوى بالملك، قال لهم أنا موافق على ذلك فمن يخطبها لي، قالوا ليس لها إلاّ الأمير بيبرس، لأنها اتخذته ابنها وله وجاهة عليها.. وخاطب بيبرس يقول... ما في الحلال عيب لأني جئتك خاطباً راغباً في أمك الست شجرة الدر، فلا تردني خائباً... فأجاب بيبرس السمع والطاعة، وسار إلى أمه لا يدري ما يقول... وكانت قد وصلت إليها أخبار، فقالت له ألست آتياً تخطبني لأيبك... والآن قد قبلت وساطتك.. إذهب إلى الآغا شاهين، وقل له أن يكون وكيلي..» (١٤٥ ـ ١٤٦)

إذاً، هنالك اختلاط حول ثلاث شخصيات نسائية، أيهن شجرة الدر، أهي فاطمة شجرة الدر، بنت الخليفة المقتدر، أم فاطمة الأقواسية، ناهيك بشجرة الدر التاريخية. وما سبب إدخال فاطمة الأقواسية إلى الرواية بهذا الشكل، اللهم إلاّ أن يكون الراوي على مذهب أدب اللامعقول. وفي أية حال فإن السيدات الثلاث يتشابهن في أنهن ممن يمكن تصنيفه في عداد «السيدة الكبيرة». وهي شخصية نسائية أخرى، ذات اقتدار، واعتداد، تأمر وتنهى، وترفع وتخفض، وتعرف المداخل والمخارج، وأساليب التأثير والوصول والحصول. لكن شجرة الدر لم تتقن أساليب النزول، فوقعت من سطح السرايا بدل أن تنزل درجاتها، وفقدت سلطتها وحياتها. ولعل الراوي الشعبي لم يستسغ فكرة السيدة المهيمنة، الحاكمة، وربما لم يستطع تفهمها أو تقبلها.

أمّا المرأة الثالثة، فهي مريم بنت ملك جنوا، فتاة في عشرويات العمر، تتفتح نفسها على الحياة، ويتفتح قلبها على الحب، فتفلت كل الكوابح المركبة في ذاتها، وتندفع وراء حبها، من دون أن تسأل عن العواقب.

تسجل الرواية أول حوار في الحب بينها وبين معروف، بتسلسل بالغ الروعة واللهفة. «فلما رأته نهضت... وقد أخذتها منه هيبة... فقالت له ما اسمك، قال معروف... ثم بدأ يحرسها هو ورجاله راكبين على الخيول ومحتاطين بها وبأتباعها...» (١٢١ ـ ١٢٢)

ويدخل الراوي رمزية الصراع الإسلامي ـ الصليبي بصورة بارعة، «وقال لها ها هو بيت المقدس فادخلي... ودخلت القدس ومعها المقدم معروف وأتباعها، وصارت تنتقل من مكان إلى مكان إلى أن وصلت إلى القيامة، فزارت ووهبت، ثم خرجت من القيامة ومعها حارسها المقدم..» هنا يحس السامع أن عبارة، «ثم خرجت من القيامة ومعها حارسها المقدم» تحمل في طياتها معنى تمهيدياً لما سيأتي «فسارت فرأت مسجد الأقصى، فقالت للحارس أيسمحون لي أن أدخل، قال لها لا بأس، بشرط أن لا يدخل أتباعك فأَدخل أنا وأنت...» (١٢٢)

هنا تنفصل عن أتباعها، ويدخل معها «حارسها المقدم» المسجد الإسلامي في إطار الـ «أنا وأنت». لقد تقدم الحوار بينهما، «وصارت تتأمل في الجامع، وزارت قبة الصخرة المشرفة، فانشرحت وقالت للمقدم إن نفسي زهت لرؤياي...» (١٢٢) لقد تداخل الشعور الشخصي المعبَّر عنه برمزية «أنا وأنت» مع الإطار الإسلامي الذي تتقدم الآن إليه. وتشهد الإمام النووي وتلاميذه، فتخاطبه بجرأة وتطلب تفسير منامها. ويفسره الإمام في الإطار الديني، ولو عرض المنام على فرويد لفسره بطريقة التحليل النفساني، ولالتقى التفسيران عند أشواق مريم إلى الحب بكل مضامينه اللغوية والإنسانية. ولا نرى بعد دخولها المسجد عبارة «وخرجت» بل إنها تقول للشيخ «ليس لي رجعة إلى بلادي...» (١٢٣) لقد بقيت أمام رحلة «الأنا وأنت» عقبة أخيرة هي المهمة المكلَّف معروف بها، وهي حراسة البنت. ويذلل الإمام النووي هذه العقبة ليوحد «الأنا وأنت» بالزواج وبالإسلام.

أخيراً هنالك امرأتان في الجانب الصليبي تمثلان نموذجين متقابلين. أولاهما زوجة وزير ملك الانجبار. فهنا سيدة تعلو بإنسانيتها فوق الحروب الصليبية، وتشمئز نفسها لقتل الأسرى «وهم عزَّل من السلاح» وتفكر بمسؤولية في عواقب الاعتداء الآثم، وتؤنب زوجها، وتصف ملكها بأنه «لا يستحق أن يكون بواب خان». وهي ليست شجاعة وكبيرة بالقول وحده، بل تدفع زوجها إلى التفتيش عن أيدمر بين القتلى والجرحى، وعندما يجلبه تعتني به، «وهو لا يعي على شيء لمدة ثلاثة أيام.»

أمّا المقابل لها فمرينة زوجة مرين، التي تمثل روح جوان الصليبية الهوجاء، فتتآمر هي وزوجها على السلطان ويدسان له السم في الطعام. قالت «إن جوان دخل

بيتها بصفة شيخ... وإن الذي جاء به هو زوجها... وأعطاها السم، وعلّم زوجها مرين أن يطلب ويستأذن من السلطان في دخولها إلى الحريم. ثم قالت أنا التي وضعت السم... فقال عرنوس يا مرين ما حملك على أن... تتلاعب بالأديان، قال إننا كنا مخطئين أنا وزوجتي، ولكن الذي حرضنا على هذا الفعل الخطير هو جوان...» (٢٥٤) وعبارة تتلاعب بالأديان هنا طريفة، فالعمل الذي أقدما عليه ليس مما يرضى عنه دين بل هو تلاعب بالأديان.

بعد هذا العرض لأشخاص الرواية، سواء لناحية تكوين شخصياتهم، أو لناحية موقعهم من الحياة والتاريخ، ومحتوى أفكارهم وحوافزهم، ورمزية سلوكهم وتصرفاتهم، نأتي إلى بعض التحليل للهيكلية التركيبية للرواية.

تتركب كل رواية من أربعة عناصر هي: الشخصيات، والحوادث، والمباريات، والمشاهد. وكلما حَسُنت مؤالفة هذه العناصر، لتؤدي المعنى والواقع المقصودين من الرواية، ازدادت اقتراباً من الأدب الرفيع. ولقد سبق أن عرضنا حبكة الرواية ومبارياتها وأشخاصها، وجاء تعرفنا إلى الأشخاص بالضرورة من خلال حوادث زمانهم، ومبارياتها، ومن خلال مواقعهم في الأحداث، وأدوارهم في مبارياتها. أمّا المَشاهِد فإن بعضها يأتي لإكمال الصورة، فيشكل رسماً جانبياً أو رسماً أمامياً، يُقصد منه توضيح معاني الصورة وتقريب الانتباه إلى بعض جوانبها. وقد يأتي المشهد مرافقاً لمباراة، فيشكل جزءاً منها، أو يكون فاصلاً بين مباراة وأُخرى، لتعميق وقع سابق، أو للإعداد أو الإيحاء أو التلميح، لما سيأتي.

فأمّا حوادث رواية الملك الظاهر بيبرس، فتقع في الإطار التاريخي لزمانها. وبالتالي فإن مهمة الراوي هي الربط بين عناصر الرواية وبين المجرى العام لأحداث وقعت، بقطع النظر عن مدى التطابق مع التاريخ نفسه. فتصبح بالتالي نوعاً من تفسير التاريخ أو فلسفة التاريخ. والصورة التاريخية العامة التي تقع الرواية ضمنها معروفة الخطوط، والمسار، والنهاية. ومن هنا فإن تناول الحوادث يصبح مسألة إضفاء مسرحة وإثارة عليها، وهذا ما تنجح الرواية فيه تماماً، بحيث يظل السامع متشوقاً أبداً لمعرفة تسلسلها واكتشاف مخفياتها وألغازها، ومتابعة بطولاتها ونذالاتها. وعلى الرغم من أن الرواية تتناول حرباً ذات طبيعة لا تنفصل عن عقائد الناس، لكون العقيدة هنا وهنالك حافزاً وهدفاً ومستهدفاً، فإن فيها الشيء الكثير من الموضوعية. فهي ليست مرسومة بالأبيض والأسود وحدهما، وليست سجل انتصار وراء انتصار، وليست استخفافاً بالجانب المقابل أو استهانة بقدراته، أو مجرد تشنيع عليه. فيها شيء من هذا كله، لكن لو لم يكن فيها هذا الشيء لكانت مجافية لحقيقة ما حدث في التاريخ ولما تكشفت الأيام عنه. ولعل أهم ما تبرزه من الناحية

العقائدية، ثقة الجانب الإسلامي بنفسه واعتقاده أن الجانب الصليبي ليست لديه قضية، بينما لديه هو قضية. الصليبية ليست سوى روح طائشة، ومدمرة، ومخربة، وحاقدة. يصف بيبرس جوان رمز هذه الروح، قائلاً «وكأنه دأبه الأذية والعدوان، وقتل الإنسان بدون حق.»

ونود أن نخص بالذكر خمسة مشاهد متحركة، تتألف من متواليات تشكل في تسلسلها الصورة المقصودة كلها. ويرقى كل منها إلى أعلى مصافات الأدب العالمي، صورة ورمزية. فأمّا أولها، فهو مشهد الفلاحين وهم يؤدون دوراً إبداعياً وحاسماً في معركة دمياط، باقتراحهم تعلية مياه النيل بسد الترع وبناء السواتر، ثم إطلاقها لإغراق أرض المعركة وإبادة العدو. يطلب العمدة من الملك ثلاثة أيام للعمل التحضيري، فيجيبه إلى طلبه «فتطوع ما ينوف عن عشرين ألف إنسان وهم يحملون المعاول والفؤوس والمجارف. .» (٣٣٣) أي مشهد شعبي رائع وأخّاذ. ثم هنالك مشهد المعركة التي قادها عرنوس في حملته الصليبية الأولى. عرنوس ابن معروف ومريم، يقود حملة صليبية. إنه لا يعرف أصله، ويظن أنه ابن الملك مغلوين. لكن معروفاً يعلم بأنه ابنه، وثمرة زواج الحب العارم بينه وبين مريم. وله في قلبه مكان الابن الذي كان مفقوداً فلقيه، وما التقاه. يخشى عليه أن يقتل. ويخشى عليه أن يُقتل وهو صليبي يحارب المسلمين. فيطلب من الملك الظاهر أن يرسل إليه رسالة مناشدة «فاترك الآن أعداءك وأعداءنا، واحضر إلى عندي. . .» لكن الرسالة تصل إلى عرنوس «وجوان بجانبه» فيجيب بالحرب. وعندما برز إلى الميدان وغلب فرسان المسلمين ورآه أبوه على هذا القدر من البطولة والرجولة، «سُرّ وابتهج». وعندما أمر الملك مرافقه إبراهيم بالنزول لعرنوس خشي معروف على ابنه، وقاطع إبراهيم وهو يتأهب للنزول، ورجاه ألاّ يبارز ابنه، قال إبراهيم «أمرني الملك، قال لو أمرك ضيعها، لأني أخاف عليه منك، لأنه لم يزل طري العود. . . قال كيف نعمل. . . قال المقدم معروف أنا أنزل إليه، وأنت واجه السلطان ودبرها. . . فقال له عرنوس من أنت أيها الشيخ، فقال أنا معروف، أبو عرنوس الواقف أمامي لقتالي. . . أنا أبوك، وأمك مريم بنت ملك جنوا. . . عندما رأيتك تفوقت على الفرسان فرحت بك وسررت. .» يلاحظ السامع لهفته، وهو يقول «أنا أبوك، وأمك مريم بنت ملك جنوا». . وكأنه يقول باعتزاز كبير أنت ولد حب عظيم. «ثم إن عرنوساً صار يقاتل أباه وأبوه يبطلها، ويعلّمه الذي لا يعرفه من فنون الحرب. .» ومرة ثانية قاطع معروف إبراهيم، وعندما غضب السلطان وقرر منازلة عرنوس بنفسه «فخاف معروف على ولده من السلطان. . . وقال له خذ حذرك، فإن السلطان غداً سيبرز لك ويأسرك، فاربط وسطك بالسلاسل إلى السرج. .» وأدرك

السلطان أن معروفاً قد بلّغ ولده أن السلطان سيبرز إليه، فحرص على أن يأسره، وكان قادراً على أن يقتله.. «فانكسر السيف، وما بقيت بيد عرنوس إلاّ قطعة من السيف، عند ذلك.. وغار به وهو رافعه بيده إلى أن وصل به إلى باب الصيوان، ورماه في الأرض، وقال ضعوه على نطع الدم، فإذا لم يطع أباه ويُسلِم فاقتلوه.» كان قد طلب منه قبل ذلك أن «إترك الآن أعداءك وأعداءنا، واحضر إلى عندي»، فلمّا لم يستجب للطلب بحريته، جاء به عنده. أمّا الأب فكان يخشى على ابنه أن «يأسره الملك»، علماً بأنه لو أسره لأتى به إلى أبيه. لماذا؟ لأنه يريد أن تبقى لولده كرامته وحريته. يقول معروف لإبراهيم «مرادك تنزل لولدي عرنوس وتكسر نفسه...» (٢٢٨ ـ ٢٣١)

كان لا بد لعرنوس بعد هذا من أن يستعيد كرامته وحريته ويعود إلى النقطة التي اقتلع منها عن سرجه، مقاتلاً منازلاً ضد المسلمين، ثم يختار بكامل حريته أن يعود إلى صف المسلمين، عارفاً أنه لن يدرك الانتماء الإسلامي إلاّ بالموت. وقد بدأت بهذه المنازلة بين الظاهر وعرنوس، التي فرضها معروف من حيث لا يريد ولا يدري، قصة الحوار والتصادم بين هذين الرجلين، التي توصل الرواية إلى ذروة الذرى بين مأساويات الأدب الإنساني.

أمّا المشهد الثالث، الذي نلفت النظر إليه، فيشكل فصلاً من فصول الصراع بين بيبرس والإسماعيلية.. وتكمن أهميته في روعة الدعابة التي تتجلى فيه، وفي أنه يستبق «الدون كيشوتية» ربما بثلاثة قرون. وذلك هو مشهد الملك الظاهر وهو راكب فرسه ـ منفرداً ـ متعقباً منصور العقاب، العاصي الإسماعيلي. ويلحقه على البعد مرافقاه إبراهيم وسعد، بعد أن تلمساه فلم يجداه، ويلحقهم شيحة جمال الدين، وقد اكتشف ما كان الملك يضمره وما ربما خبأه حتى عليه. وتتطور المبارزة بين الملك (الذي لا يعرفه عقاب نظراً إلى تنكره)، ومنصور العقاب لأن منصور يفقد فرسه، ومن ثم يحتال في مبارزته ليضطر الملك إلى النزول عن جواده فيسرق جواد الملك الذي كان قد طمع فيه منذ البداية ويهرب به، ويترك الملك سائراً على قدميه. ويلتقي منصور بعد ذلك إبراهيم وسعد، ويبدو أنه غاوي خيل من الطراز الأول، فتعجبه فرس إبراهيم، ويتقاتل وإياه، وينزل كل منهما عن حصانه، فيقفز منصور على فرس إبراهيم ويترك له جواد الملك. ثم يلتقي إبراهيم وسعد الملك ماشياً، فينزل إبراهيم عن فرس الملك، ويستأجر بغلة من أحد الفلاحين ليركبها... وبعدها يلاقي منصور «رجلاً محملاً برميلين على بغلة»، وعندما يعرف أنهما برميلا خمر يطلب جرعة، فيعطيه الرجل من الخمر ما يسكره، ويربطه «من يديه ورجليه من تحت بطن الفرس، ويربط الفرس بالبغلة» (٢٤٠ ـ ٢٤٤) وما هذا

الرجل سوى شيحة جمال الدين.

ونأتي إلى مشهد أو متوال مملوء رمزية ودعابية بأعلى أشكالها. يحدث هذا المشهد بعد ما يعرف عرنوس، في حملته الثانية، أن جوان دبر مقتل والده معروف، فيأخذ قراره الحر بالعودة إلى الصف الإسلامي. «وركب جواده فرأى أبواب حلب مفتوحة وجيوش السلطان الظاهر وعساكره تخرج منها... ورمى نفسه على الأعداء الفرنج...» (٢٦٥) ويدرك فوراً أنه أياً تكن قناعته ومشاعره، فهو الآن وحيد، لا من هؤلاء ولا من هؤلاء.. «رأى السلطان يراقبه فخجل من نفسه... فعندما انتهت المعركة بنصر السلطان... هام على وجهه سائحاً في البراري والقفار، وصار يأكل هو والحصان من نبات الأرض، ويشرب من الينابيع والغدران، حتى قطع بلاداً بعيدة، فوصل إلى أرض زائدة الحر، لا وحش فيها ولا طير... فعلم أنه هالك لا محالة، فبسط يديه إلى الملك العَلاَّم، وصار يتضرع ويستجير بالله، فغيمت السماء وحصل الرعد، ونزل المطر، وامتلأت الحفر بالماء، فشرب حتى ارتوى هو وحصانه... ولـمّا طلع النهار وجد نفسه في برية متسعة الجنبات، ورأى أناساً كثيرين، فلمّا رأوه نفروا منه وهربوا وصاروا يراقبونه عن بعد، فتعجب منهم عرنوس وأشار لهم إشارة فهموا منها لماذا أنتم خائفون، فتقدم إليه رجل كبير السن... قال لأن هذا الوادي لا يخرج منه إلاّ الجان وظنوك جنياً فهربوا منك.» (٢٦٧)

مشهد رمزي يمثل وحدة عرنوس المطلقة، ووحشته المطبقة، واقترابه من الهلاك، ولم يبق له من أمل سوى أن يتداركه الله عز وجل برحمته «فعلم أنه هالك لا محالة، فبسط يديه إلى الملك العَلاَّم..» لقد «أضاع» كل شيء، حتى نفسه، وفقد حتى إنسانيته «وظنوك جنياً فهربوا منك.»

أمّا الدعابة فتتمثل في متوالي معاملة الخاناتي له، حيث يجرده، ابتزازاً، من ماله، وحصانه، وعدة حصانه وسلاحه، وحتى قلنسوته، بأزهد الأثمان، ويلقي به في الشارع، ثم يتبين أن الخاناتي والوزير شريكان في العملية؛ دعابية تعكس فساداً مستشرياً في الحياة العامة وترمز إلى أن هذا الفساد يلاحق الناس في كل ما بأيديهم حتى يجردهم من كل شيء... «وهكذا حتى بيَّعه عدة الحصان والسيف والترس، ثم عاد فبيَّعه القلنسوة، والدرع الكنوزي... ثم عاد وطالبه بأجرة الغرفة، فقال له لم يبق عندي شيء أُعطيك إياه، فقال ولا أنا أُبقيك في الغرفة بدون أُجرة، ثم حمله، وأخرجه من الخان، ووضعه على قطعة حصير، وغطاه بخيشة خنفاص وتركه... فقد اشتد به المرض وهو مطروح في الطريق...» (٢٦٧ ـ ٢٦٨)

والمشهد في مجموعه يتألف من فصلين، الفصل الأول صورة إنسان مع نفسه في فراغ كامل، يحاول أن يهرب منها فلا يجد إلى ذلك سبيلاً، والمشهد الثاني

صورة إنسان في مجتمع يتصارع فيه العدل والفساد، فيطغى الفساد حيناً حتى يدركه العدل ويعيد حقاً إلى نصابه... وذاك صراع أزلي يسير في دورات لا نهاية لها.

أمّا المشهد الأخير، فإنه مشهد المشاهد كلها، حيث تلتقي عنده جميع عناصر الرواية، فتأخذ بعداً مأساوياً لا مثيل له في عمق المعنى أو براعة الأداء والأسلوب. ويندفع المشهد من بدايته في مسيرة طويلة، تشبه مسيرة واد ترتفع مياهه كلما صبت فيه خلال اندفاعه مياه جديدة، حتى يبلغ الزبى، ويصبح فيضاناً لا يتوقف ولا يرد.

يبدأ المشهد بمنام رآه الملك الظاهر «الليلة الماضية» وشرع يقصه في ديوانه، وهو مقيم «يتعاطى الأحكام بالعدل والإنصاف.» يظهر على وجه الملك فجأة «الحزن والألم». وفي هذا إيحاء إلى أن الملك قد اتخذ بالعدل والإنصاف حكماً محزناً ومؤلماً، وهذا الحكم يتعلق بعرنوس... وقد جاء في منامه أنه رأى عرنوس طيراً له أجنحة ويريد الطيران فخاف عليه، ووضعه في قفص، فأتت طيور سود وصارت تدور حوله وما لحق أن يدركها فقطعته...

ويظهر لنا في نهاية المشهد، أن صاحب الرأي في هذا الأمر هو شيحة جمال الدين... وبالتالي يمكن القول إن منام الملك من تأليفه، وإنه ربما اتفق معه على هذا الأمر في غرفة الأسرار.

وبما أن الملك روى منامه في الديوان، فيمكن القول إنه بلغ مسامع عرنوس منذ لحظة وصوله من مدينة الرخام، فما التقى الملكَ حتى شرع على الفور ومن دون انتظار يروي له مناماً مقابلاً كان قد رآه هو من مدة «وأرغب أن تسمعه مني.» وعبارة «أرغب أن تسمعه مني» هنا تعبر عمّا سيقوله من أهمية وجدية بالغين، لكن الطريف أن يقول للملك «أنا رأيت مناماً من مدة...» وكأنه يخبره بذلك أن حديثه ليس إجابة عن حكم الملك، بل هو قرار سابق لصدور ذلك الحكم. ومنام عرنوس أنه رأى أباه الشهيد يقول له «أنا مشتاق لرؤيتك... ومنتظر زيارتك» ويشير عرنوس في إجابته لأبيه (في المنام طبعاً) إشارة لبقة إلى عياله... «وأنا أريد أن أترك عيالي وأولادي وأقيم معك...» يبدو أنه يوصي السلطان بأن لا يقسو على عياله... وفي قول أبيه له «سوف يتبعونك» تعبير خفي عن مناشدة للسطان ألاّ يذهب عياله معه، والصيغة الإيجابية والتأكيدية «سوف يتبعونك» توحي بالأمل بأن السلطان سيتركهم وشأنهم، ولن يرفقهم معه، ويستطرد أبوه ليوضح له أن الموضوع موضوع موته هو «عندي زوجات ينتظرنك، وهن من بنات الحور العين» وأن طريق الوصول والوصال هي الشهادة في الجهاد والقتال.. عرنوس إذاً يبلّغ الملك أنه عقد العزم على الموت في الجهاد والقتال، وله أمل بألاّ ينال عياله بسوء... لكن حكم الملك، فيما يبدو، لم يكن قابلاً للاستئناف، ولذلك يكتفي بأن يقول له «على المرء أن يزهد في

الدنيا لينال النعيم في الآخرة...» أي أن المسألة مسألة زهد في الحياة، لا أسلوب في الموت.

نلحظ من بداية المساجلة كيف يحاول الملك أن يمرر على بيبرس الميتة الـمُرَّة التي أعدها له، في إطار من المؤانسة. فعند وصول عرنوس «ترحب به السلطان، وأجلس عرنوس بجانبه وآنسه وباسطه.» ثم عندما اقترب موعد الطعام بدأ السلطان «يؤانس عرنوس ويلاطفه ويسليه، وقال له تفضل كل معي...» فلمّا أفاق عرنوس من البنج الموضوع له في الطعام ووجد نفسه في السجن، عاد الحوار بينهما أدراجه، فقال عرنوس للسلطان «أتمنعني عن الجهاد» فأجابه السلطان «كلما نظرت إليك كأني أنظر إلى أبيك، وإني خائف عليك من هذه الحملة، ولا أريد منك أن تراها، فلا تخالفني.» وللقارئ (السامع) أن يفسر حافز السعيد على إطلاقه من السجن على هواه.. فإمّا أن السعيد كان يقابل الجميل الذي أسداه عرنوس إليه بتبرئته من تهمة دس السم في طعام السلطان، وإمّا أنه فعلها بوحي من (شيحة) مثلاً. ويلحق عرنوس بالسلطان ليخوض المعركة الأولى في تلك الحملة، «فيصول ويجول بين عساكر الأعداء»، ويلتقي الملك وعرنوس ثانية ويعود الحوار إلى ما كان عليه. يقول الملك «إن طعم الموت مُر، لا يقبله عبد ولا حر»، فيجيب عرنوس «ومن يستطيع الهروب من الموت.»

وعاد الملك «يباسطه ويسليه إلى أن حضر الطعام»، ويصبح تكرار عبارة المباسطة والمؤانسة والتسلية نذيراً مجدداً بما هو معد؛ دقات قدر زاحف ومطبق. وفي هذا الإيقاع المتكرر روعة أسلوبية تشد المستمع إلى السيرة وأحداثها الآتية التي تزداد تكشفاً مع كل دقة.

وعندما يرفض عرنوس الأكل «إلاّ من ثمار الجنة»، ربما مخافة تبنيج آخر بأمر من الملك، لإيداعه السجن، يقول له الملك «ليس عندي أعز ولا أغلى منك.» وهذا التناقض المخيف بين الكلام والفعل يزيد في وقع الرهبة التي يخلقها الراوي بحديثه.

وعندما يلتقيان مجدداً خارج حلب، يخاطبه الملك بتهكم.. «ولكن قل لي من الذي أطلقك من السجن بالشام، فقال أطلقتني جارية كان نائب الشام جعلها لخدمتي... وقلت لها إنْ خلّصْتِني من السجن أتزوجك، ففكتني... فقال له السلطان بعد انتهاء الحملة قم بوفاء عهدك...» وعاد الحوار وعاد الملك يقول له «أنت لا تطيعني، أمَا تعلم أن إطاعة الملك فرض مطلوب، قال نعم، ولكن الجهاد فرض على كل مسلم..»

إنها لعبة الأسد مع فريسته. لذلك يتركه الملك في هذه المرة حراً، وعندما

يلتقيه في اللاذقية آخراً وأخيراً يقول له «أصلحك الله، أما اتفقنا أن تظل بحلب بدون حبس.»

ويطلق شيحة جمال الدين إشارة التنفيذ بقوله «الحذر لا يمنع القدر». لقد حان أخيراً وقت وقوع القدر.. «والرأي عندي أنه كلما دارت رحى الحرب، ضع برجليه ويديه القيود واتركه بالصيوان..»

وبعد أن يقيد عرنوس نعلم بأنه «كان قد شاهد هذا الأمر جاسوس من الأعداء» ولعله الجاسوس المزدوج الذي استحضره شيحة ليعلم «جوان والملك رومان بأن عرنوس مقيد وهو في الصيوان.» ويقترح جوان فوراً قتله، ويرسم الخطة لذلك... لكن الألف فارس الذين حمل رومان بهم للوصول إلى عرنوس، وجدوا الطريق مفتوحاً، وعرنوس مكشوفاً، فقتلوه «ثم عاد رومان بعسكره إلى جيشه.»

إن عرنوس ثمرة الحب بين معروف ومريم.. الإنسان الضائع بين عالمين متنازعين متحاربين.. يشده كل منهما، فيتقلب بينهما تبعاً لقوة الشد أو مصادفة الهوى. وعندما يسترد حريته يضيع نفسه. وعندما يجد نفسه يفقد حريته حتى في اختيار ميتته. يقيده بيبرس ويستدرج رومان لقتله. وذلك قدره، والحذر لا يمنع القدر. يموت وهو عارف أنه لا يستطيع الهروب من الموت. لقد اختار ميتة الجهاد أسوة بمثل أبيه، ولأن الجهاد فريضة على كل مسلم. لكن السلطان يحرمه ميتة الأبطال في ساحة القتال. ويتركه للصليبيين، يقتلونه إن شاؤوا، أو يخلصونه. لكن جوان لا يضيع فرصة قتل «فقال جوان لولا عرنوس كنا انتصرنا على الملك الظاهر، فالآن صارت عندنا فرصة لقتله...»

... وكان السلطان «أشد الجميع حزناً ولوعة على عرنوس.»

